الفصل الخامس

صاحب الأخلاق العظيمة

يقول الإمام البوصيرى فى البردة المباركة :

ظَلَمْتُ سُنَّةَ مَنْ أَحْيَا الظَّلام إلى ... أنِ اشْتَكَتْ قَدَمَاهُ الضُّرَّ مِنْ وَرَمِ

وَشَدَّ مِنْ سَغَبٍ أَحْشَاءَهُ وَطَوَى ... تَحْتَ الحِجَارَةِ كَشْحاً مُتْرَفَ الأَدَمِ (١)

وَرَاوَدَتْهُ الْجِبَالُ الشُّمُّ مِنْ ذَهَبٍ ... عَنْ نَفْسِهِ فَأَرَاهَا أَيُّمَا شَمَمِ (٢)

وَأَكَّدَتْ زُهْدَهُ فِيهَا ضَرُورَتُهُ ... إنَّ الضَّرُورَةَ لا تَعْدُو عَلَى العِصَمِ (٣)

وَكَيْفَ تَدْعُو إِلَى الدُّنْيَا ضَرُورَةُ مَنْ ... لَوْلاهُ لَمْ تُخْرَجِ الدُّنْيَا مِنَ العَدَمِ

مُحَمَّدٌ سَيِّدُ الكَوْنَيْنِ وَالثَّقَلَيْـ ... ـنِ وَالْفَرِيقَيْنِ مِنْ عُرْبٍ وَمِنْ عَجَمِ (٤)

نَبِيُّنَا الآمِرُ النَّاهِي فَلا أَحَدٌ ... أَبَرُّ فِي قَوْلِ « لا » مِنْهُ وَلا « نَعَمِ»

هُوَ الْحَبِيبُ الَّذِي تُرْجَى شَفَاعَتُهُ ... لِكُلِّ هَوْلٍ مِنَ الأَهْوَالِ مُقْتَحَمِ (٥)

دَعَا إِلَى اللهِ فَالْمُسْتَمْسِكُونَ بِهِ ... مُسْتَمْسِكُونَ بِحَبْلٍ غَيْرِ مُنْفَصِمِ (٦)

فَاقَ النَّبِيِّينَ فِي خَلْقٍ وَفِي خُلُقٍ ... وَلَمْ يُدَانُوهُ فِي عِلْمٍ وَلا كَرَمِ

---

(١) السغب : الجوع ، الكشح : هو ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلف ، وهى أقصر الأضلاع وآخرها ، وهى من لدن السرة إلى المتن ، مترف : أى رقيق ، الأدم : الجلد .

(٢) راودته : خادعته ، الشم : العالية الشامخة ، الشمم : الإباء .

(٣) ضرورته : حاجته ، العِصَم - بكسر العين وفتح الصاد ، جمع عصمة ، أى أن الحاجة والضرورة لا سبيل لهما على مَن عصمه الله وحفظه .

(٤) الثقلان : الإنس والجن .

(٥) مقتحم : بفتح الحاء ، مهجوم عليه ومتورط فيه .

(٦) منفصم : منقطع .

وكُلُّهُمْ مِنْ رَسُولِ اللهِ مُلْتَمِسٌ ... غَرْفاً مِنَ البَحْرِ أَوْ رَشْفاً مِنَ الدِّيَمِ (١)

وَوَاقِفُونَ لَدَيْهِ عِنْدَ حَدِّهِمِ ... مِنْ نُقْطَةِ العِلْمِ أَوْ مِنْ شَكْلَةِ الحِكَمِ

فَهُوَ الَّذِي تَمَّ مَعْنَاهُ وَصُورَتُهُ ... ثُمَّ اصْطَفَاهُ حَبِيباً بَارِئُ النَّسَمِ (٢)

مُنَزَّهٌ عَنْ شَرِيكٍ فِي مَحَاسِنِهِ ... فَجَوْهَرُ الحُسْنِ فِيهِ غَيْرُ مُنْقَسِمِ

* *

ويقول أحمد شوقى فى نهج البردة :

البَدْرُ دُونَكَ فِي حُسْنٍ وَفِي شَرَفٍ ... وَالبَحْرُ دُونَكَ فِي خَيْرٍ وَفِي كَرَمِ

شُمُّ الجِبَالِ إِذَا طَاوَلْتَهَا انْخَفَضَتْ ... وَالأَنْجُمُ الزُّهْرُ مَا وَاسَمْتَهَا تَسِمِ (٣)

وَاللَّيْثُ دُونَكَ بَأْساً عِنْدَ وَثْبَتِهِ ... إِذَا مَشَيْتَ إِلَى شَاكِي السِّلاحِ كَمِي (٤)

تَهْفُو إِلَيْكَ - وَإِنْ أَدْمَيْتَ حَبَّتَهَا ... فِي الحَرْبِ - أَفْئِدَةُ الأَبْطَالِ وَالبُهَمِ (٥)

مَحَبَّةُ اللهِ أَلْقَاهَا . وَهَيْبَتُهُ ... عَلَى ابْنِ آمِنَةٍ فِي كُلِّ مُصْطَدَمِ (٦)

---

(١) رشفاً : مصاً بالشفتين ، الديَم : بكسر الدال وفتح الياء : جمع ديَمة ، وهى مطر يدوم فى سكون بلا رعد ولا برق ، ومعنى هذا أنَّ ما جاء به الأنبياء السابقون - صلوات الله عليهم - من الهدى إذا قيس إلى هدى محمد ﷺ كان كغرفة من بحر أو رشفة من مطر .

(٢) النسم : الأرواح ، جمع نسمة .

(٣) يقال : واسمه فى الحسن فوسمه : غلبه فيه ، انخفاض الجبال : كناية عن ظهورها قصيرة بالنسبة لارتفاع قدره صلى الله عليه وسلم وعلو شأنه .

(٤) الكمى : لابس السلاح .

(٥) تهفو : هفا الظبى فى المشى يهفو هفواً وهفواناً : أسرع وخف فيه ، والمراد هنا شدة ميل القلوب له وانجذابها إليه صلى الله عليه وسلم ، وحبة القلب : سويداؤه ، والبهم : جمع بهمة وهو الشجاع .

(٦) مصطدم : بمعنى المصدر ، أى الاصطدام ، أو : الموضع ، أى موضع الاصطدام ، وهو ميدان الحرب .

كَـأَنَّ وَجْهَـكَ تَحْتَ النَّقْعِ بَدْرُ دُجًى ... يُضِـيءُ مُلْتَثِماً ، أَوْ غَيْـرَ مُلْتَثِمِ (١)

بَـدْرٌ تَطَلَّـعَ فِـي بَـدْرٍ فَغَـرَّتُهُ ... كَغُـرَّةِ النَّصْرِ ، تَجْلُو دَاجِيَ الظُّلَمِ (٢)

* *

ويقول أيضاً فى الهمزة المباوكة :

يا مَـنْ لَهُ الأَخْـلاَقُ مَا تَهْـوَى العُلاَ ... مِنْهَـا وَمَـا يَتَعَشَّـقُ الكُبَـرَاءُ

لَوْ لَمْ تُقِـمْ دِيْنـاً ، لَقَامَتْ وَحْدَهَا ... دِينـاً تُضِـيءُ بِنُـورِهِ الآنَـاءُ

زَانَتْـكَ فِـي الخُلُقِ العَظِيمُ شَمَائِلٌ ... يُغْـرَى بِهِـنَّ وَيُـولَعُ الكُرَمَـاءُ

أَمَّا الجَمَـالُ ، فَأَنْتَ شَمْـسُ سَمَائِهِ ... وَمَـلاَحَةُ (الصِّدِّيقِ) مِنْكَ أَيَاءُ (٣)

وَالْحُسْـنُ مِـن كَـرَمِ الوُجُوهِ ، وَخَيْرُهُ ... مَـا أُوتِـيَ القُـوَّادُ وَالزُّعَمَـاءُ

فَإِذَا سَخَـوْتَ بَلَغْتَ بِالْجُـودِ المَدَى ... وَفَعَلْـتَ مَا لا تَفْعَـلُ الأَنْـوَاءُ (٤)

وَإِذَا عَفَـوْتَ فَقَـادِراً ، وَمُقَـدِّراً ... لاَ يَسْتَهِيـنَ بِعَفْـوِكَ الجُهَـلاَءُ

وَإِذَا رَحِمْـتَ فَأَنْـتَ أُمٌّ ، أَوْ أَبٌ ... هَـذَانِ فِـي الدُّنْيَا هُمَـا الرُّحَمَاءُ

وَإِذَا غَضِبْتَ فَإِنَّمَـا هِـيَ غَضْبَـةٌ ... فِـي الحَقِّ ، لا ضِغْنٌ وَلا بَغْضَاءُ (٥)

وَإِذَا رَضِيتَ فَـذَاكَ فِـي مَرْضَـاتِهِ ... وَرِضَـى الكَثِيـرِ تَحَلُّـمٌ وَرِيَاءُ (٦)

وَإِذَا خَطَبْـتَ فَلِلْمَنَـابِرِ هِـزَّةٌ ... تَعْـرُو النَّـدِيَّ ، وَلِلْقُلُوبِ بُكَاءُ (٧)

وَإِذَا قَضَيْـتَ فَـلا ارْتِيَـابَ ، كَأَنَّمَا ... جَـاءَ الخُصُـومَ مِـنَ السَّمَاءِ قَضَاءُ

---

(١) النقع : غبار الحرب .

(٢) بدر : موضع بين الحرمين الشريفين ، وفيه كانت الغزوة المشهورة التى دمغ فيها الشرك وأعز الإسلام .

(٣) أياء الشمس وآياتها : نورها وحسنها .

(٤) النوء : المطر .

(٥) الضغن : الحقد .

(٦) التحلم : تكلف الحلم .

(٧) الندى : النادى .

وَإذَا حَمَيْتَ المَـاءَ لَـمْ يُـوردْ ، ولَو ... أنَّ القَياصِـرَ والمُلُـوكَ ظِمَـاءُ

وَإذَا أجَـرتَ فأنت بيـتُ اللهِ ، لـم ... يدخـل عليـه المستجيـرَ عداءُ

وَإذَا ملكـتَ النفسَ قُمْـتَ ببِـرِّها ... ولـو أن ما ملكت يـداكَ الشـاءُ

وَإذَا بنيـتَ فخيـرُ زَوْجٍ عِشـرةً ... وإذا ابتنيْتَ فدونَـكَ الآبـاءُ (١)

وَإذَا صَحِبْـتَ رأى الوفـاءَ مُجَسّماً ... فـي بُـرْدِك الأصحـابُ والخلطاءُ

وَإذَا أخـذتَ العهـدَ ، أو أعْطَيْتَـهُ ... فجميـعُ عَهْـدِكَ ذِمَّـةٌ ووفـاءُ

وإذا مَشَيْتَ إلـى العـدا فَغَضَنْفَر ... وَإذَا جَـرَيْتَ فَإنَّـكَ النَكْبَـاءُ (٢)

وَتَمُـدُّ حِلمَـكَ للسفيـهِ مُـداريا ... حتـى يضيـق بعرضِـكَ السُّفَهاءُ

فـي كـل نَفْسٍ مـن سُطاكَ مَهابةٌ ... ولكـل نفس فـي نداكَ رَجاءُ (٣)

والرأيُ لَـمْ يَنُضَ المُهَنَّـدُ دُونَـهُ ... كالسيف لَـمْ تُضْـرَب بِهِ الآرَاءُ (٤)

* * *

● الإنسان الكامل :

الكمال البَشرى على ضربين : ظاهر ، وباطن .

وكل واحد من هذين الضربين - أيضاً - على ضربين : ضرب يكون الإنسان مجبولاً عليه ، ولا اكتساب له فيه ، وضرب يكون مكتسَباً للإنسان يُحصِّل له بسعيه وتكسبه .

فقد انحصرت صفات الكمال فى أربعة أقسام : كمال ظاهر ضرورى ، وكمال ظاهر مكتسَب ، وكمال باطن ضرورى ، وكمال باطن مكتسَب .

---

(١) بنى بأهله : زُفَّ إليهم ، وابتنى : صار له بنون .

(٢) غضنفر : أسد ، والنكباء : ريح بين ريحين . (٣) سطا : جمع سطوة .

(٤) نضا السيف من غمده : سلّه ، والمهند : السيف المطبوع من حديد .

وقد جمع الله تعالى هذه الأصناف الأربعة للنبى ﷺ ، فقد أوتى كمال الخلقة ، وجمال الصورة ، وفصاحة اللسان ، وشرف النسب ، وعزة القوم ، وكرم الأرض ، وقوة العقل ، وصحة الفهم ، ومتانة العلم ، وجمال الصبر ، وعظم الحلم ، وحسن التواضع والعدل ، وجزالة الزهد والفضل ، وعموم الجود والكرم ، ووثاقة العهود والذمم ، وحسن السمت والأدب ، وطهارة الذات والنسب ، وعظم الشجاعة والنجدة ، وكثرة الحياء والمروءة .

فكان صلى الله عليه وسلم أكمل الناس خلالاً ، وأفضلهم حالاً ، وأعلمهم بحدود الله ، وأخوفهم من الله .

ولقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يختار من كل جنس من أجناس المخلوقات أطيبه ، وأن يختصه لنفسه ويرتضيه دون غيره ، فإنه سبحانه طيب لا يحب إلا الطيب ، ولا يقبل من العمل والكلام والصدقة إلا الطيب ، فالطيب فى كل شئ هو مختاره سبحانه .

أما خلقه تعالى ، فعام للنوعين - الطيب والخبيث - وبهذا يُعلم عنوان سعادة العبد وشقاوته ، فإن الطيب لا يناسبه إلا الطيب ، ولا يرضى إلا به ، ولا يسكن إلا إليه ، ولا يطمئن قلبه إلا به .

فله من الكلام الكلام الطيب الذى لا يصعد إلى الله تعالى إلا به ، وهو أشد شئ نفرة عن الفحش فى المقال ، والتفحش فى اللسان البذئ ، والكذب ، والغيبة ، والنميمة ، والبهت ، وقول الزور ، وكل كلام خبيث .

كما لا يألف من الأعمال إلا أطيبها ، وهى الأعمال التى اجتمعت على حسنها الفطر السليمة ، مع الشرائع النبوية ، وزكتها العقول الصحيحة ، فاتفق على حسنها : الشرع ، والعقل ، والفطرة .

وقد اقتضت حكمة الله سبحانه ، أن يجعل للسعادة والشقاوة عنواناً يُعرفان به ، فالسعيد طيب لا يليق به إلا طيب ، ولا يأتى إلا طيباً ، ولا يصدر منه إلا طيب ، ولا يلابس إلا طيب .

أما الشقى الخبيث ، فلا يليق به إلا خبيث ، ولا يأتى إلا خبيثاً ، ولا يصدر منه إلا الخبيث .. فالخبيث يتفجر من قلبه الخبث على لسانه وجوارحه ، كما أن الطيب يتفجر من قلبه الطيب على لسانه وجوارحه .

وقد يكون فى الشخص مادتان ، فأيهما غلب عليه كان من أهلها ، فإن أراد الله به خيراً ، طهّره الله تعالى من المادة الخبيثة حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة .

وقد اختار الله تعالى رسوله ﷺ ، واختصه لنفسه ، وأكرمه برسالته ، وبعثه إلى خلقه ، واختصه بكرامته وجعله أميناً بينه وبين عباده ، وارتضاه دون غيره للرسالة الخاتمة ، فهدى به البَشرية بعد ضلالها ، وجعل أمته خير أمة أخرجت للناس : تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وتؤمن بالله .

لهذا كان له - صلى الله عليه وسلم - من الأخلاق أطيبها وأزكاها : كالحلم ، والوقار ، والسكينة ، والرحمة ، والصبر ، والوفاء ، وسهولة الجانب ، ولين العريكة ، والصدق ، وسلامة الصدر من الغل والغش والحقد والحسد ، والتواضع ، وخفض الجناح لأهل الإيمان ، والعزة والغلظة على أعداء الله ، وصيانة الوجه عن بذله لغير الله ، والعفة ، والشجاعة ، والسخاء ، والمروءة .. وكل خُلُق اتفقت على حسنه الشرائع والعقول .

وقد كان صلى الله عليه وسلم لا يختار من المطاعم إلا أطيبها - وهو الحلال الهنى المرى - الذى يغذى البدن والروح أحسن تغذية .. كما كان لا يختار من المناكح إلا أطيبها وأزكاها ، ومن الرائحة إلا أطيبها وأزكاها ، ومن الأصحاب والعشراء إلا الطيبين منهم .

فروحه - صلى الله عليه وسلم - طيب ، وبدنه طيب ، وخُلُقه طيب ، وعمله طيب ، وكلامه طيب ، ومطعمه طيب ، ومشربه طيب ، وملبسه طيب ، ومنكحه طيب ، ومدخله طيب ، ومخرجه طيب ، ومنقلبه طيب ، ومثواه كله طيب .

ولا غرابة فى ذلك كله ، فقد اختصه الله سبحانه لنفسه وارتضاه دون غيره .. والله تعالى طيب لا يحب إلا الطيب ، ولا يختار من أجناس المخلوقات إلا أطيبها .

ولهذا اختار له - جلّ شأنه - خير الأنساب ، فكان صلى الله عليه وسلم خير أهل الأرض نسباً ، فلنسبه - كما علمتَ - من الشرف أعلى ذروة ، الأمر الذى شهد له به الأعداء ، فكان أشرف القوم قومه ، وأشرف القبائل قبيلته ، وأشرف الأفخاذ فخذه .. صلى الله عليه وسلم .

بعثه الله تعالى على رأس الأربعين من عمره ، وهى رأس الكمال ، ولها تُبعث الرسل ، وأمره - جلّ شأنه - أولاً بإنذار عشيرته الأقربين ، ثم أمره بإنذار قومه ، ثم إنذار قوم ما آتاهم من نذير - وهم العرب قاطبة - وأخيراً : إنذار جميع مَن بلغته دعوته من الجن والإنس إلى آخر الدهر ، فتدرجت دعوته - صلى الله عليه وسلم - على أربعة مراتب ، حتى شملت الجن والإنس قاطبة .

وظل رسول الله ﷺ يدعو قومه سراً ثلاث سنين ، ثم نزل عليه قوله تعالى : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١) ، فأعلن - عليه الصلاة والسلام - بالدعوة ، وجاهر قومه بالعداوة ، واشتد الأذى عليه وعلى المسلمين ، حتى أذن لهم بالهجرتين ، إلى الحبشة ثم إلى المدينة .

لقد أرسل الله تعالى رسوله رحمة للعالمين ، وإماماً للمتقين ، وحُجَّة على الخلائق أجمعين .

أرسله على حين فترة من الرسل ، فهدى به إلى أقوم الطرق وأوضح السبل ، وافترض على العباد طاعته وتعزيره ، وتوقيره ومحبته والقيام بحقوقه ، وسد دون جنَّته الطرق ، فلم تُفتح لأحد إلا من طريقه .

فأدى - صلى الله عليه وسلم - الأمانة ، وبلَّغ الرسالة ، ونصح للأمة ،

---

(١) الحجر : ٩٤

وجاهد فى الله حق جهاده ، وترك أمته على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك .. فجزاه الله عن أمته خير ما جزى نبياً عن أمته .

شرح الله سبحانه لرسوله صدره ، ورفع ذكره ، ووضع عنه وزره ، وجعل الصَغار والذلة على مَن خالف أمره .

كان صلى الله عليه وسلم الإنسان الكامل الذى قال فيه ربه : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [1] ، فكان المثل الأعلى للإنسانية كلها ، يؤثر مرضاة ربه على هواه ، ويتحبب إليه بجهده وطاقته ، ويحسن إلى خَلْقه ما استطاع ، فيفعل بهم ما يحب أن يفعلوا به ، ويعاملهم بما يحب أن يعاملوه به ، ويدعهم مما يحب أن يدعوه منه .

ينصحهم بما ينصح به نفسه ، ويحكم لهم بما يحب أن يُحكم له به .

يحمل أذاهم ولا يحملهم أذاه ، ويكف عن أعراضهم ولا يقابلهم بما نالوا من عِرضه .

إذا رأى لهم حُسناً أذاعه ، وإذا رأى سيئاً كتمه ، ويقيم أعذارهم ما استطاع فيما لا يبطل شريعته ، ولا يناقض لله تعالى أمراً ولا نهياً [2] .

تعالوا نقرأ وصف أقرب الناس إليه - صلى الله عليه وسلم - حيث يصف سيرته فى جلسائه :

يقول الحسن بن علىّ رضى الله عنهما : « سألتُ أبى عن سيرة رسول الله ﷺ فى جلسائه فقال : « كان رسول الله ﷺ دائم البِشْر ، سهل الخُلق ، لَيِّن الجانب .

ليس بفظٍ ، ولا غليظ ، ولا صخَّاب ، ولا فحَّاشٍ ، ولا عيَّابٍ ، ولا مشَّاح .

يتغافل عما لا يشتهى ، ولا يُؤْيِسُ منه ، ولا يخيب فيه .

---

(١) القلم : ٤

(٢) انظر : البداية والنهاية ، وزاد المعاد ، وكتب السيرة ففيها الكثير من خلاله صلى الله عليه وسلم .

قد ترك نفسه من ثلاث : الرياء ، والإكثار ، وما لا يعنيه .

وترك الناس من ثلاث : كان لا يذم أحداً ، ولا يعيِّره ، ولا يطلب عورته .

لا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه ، وإذا تكلم أطرق جلساؤه . كأنما على رؤوسهم الطير ، فإذا سكت تكلموا .

لا يتنازعون عنده الحديث ، ومَن تكلم عنده أنصتوا إليه حتى يفرغ ، حديثهم عنده حديث أولهم .

يضحك مما يضحكون منه ، ويتعجب مما يتعجبون منه ، ويصبر للغريب على الجفوة فى منطقه ومسألته - حتى إن كان أصحابه ليستجلبونهم - ويقول : « إذا رأيتم طالب حاجة يطلبها فأرفوده » .

لا يقبل الثناء إلا من مكافئ ، ولا يقطع على أحد حديثه ، حتى يجوز فيقطعه بنهى أو قيام » .

● وعن عطاء بن يسار رضى الله عنه قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما فقلت له : أخبرنى عن صفة رسول الله ﷺ فى التوراة ، قال : أجل ، والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾ (١) . فى التوراة : « يا أيها النبى إنَّا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وحرزاً للأميين ... أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب بالأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويصفح ... ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملّة العوجاء بأن يقولوا : لا إلهَ إلا الله ، فيفتح به أعيناً عمياً ، وآذاناً صماً ، وقلوباً غُلفاً » (٢) .

ومصداق هذا .. حديث عائشة رضى الله عنها الذى رواه أبو عبد الله الجدلى رضى الله عنه قال : سمعت عائشة رضى الله عنها وسألتها عن خُلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : « لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً ولا صخاباً فى الأسواق ، ولا يجزى السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويصفح » (٣) .

---

(١) الأحزاب : ٤٥ (٢) رواه البخارى . (٣) رواه أبو داود .

● وعن خارجة بن زيد رضى الله عنه : أن نفراً دخلوا على أبيه زيد بن ثابت رضى الله عنه فقالوا : حدِّثنا عن بعض أخلاق النبى ﷺ فقال : « كنت جاره ، فكان إذا نزل عليه الوحى بعث إلىّ فآتيه فأكتب الوحى ، فكنا إذا ذكرنا الدنيا ذكرها ، وإذا ذكرنا الآخرة ذكرها معنا ، وإذا ذكرنا الطعام ذكره معنا .. فكل هذا أحدثكم عنه » (١) .

● وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ من أشد الناس لطفاً ، والله ما كان يمتنع فى غداة باردة من عبد ولا من أمَة ولا صبى أن يأتيه بالماء فيغسل وجهه وذراعيه (٢) .. وما سأله سائل قط إلا أصغى إليه بأذنه ، فلم ينصرف حتى يكون هو الذى ينصرف عنه ، وما تناول أحداً بيده إلا ناوله إياها فلم ينزع حتى يكون هو الذى ينزعها » (٣) .

● وعن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : سألت عائشة رضى الله عنها عن خُلُق رسول الله ﷺ فقالت : « كان خُلُقه القرآن ، يرضى لرضاه ويسخط لسخطه » (٤) .

وفى رواية عن زيد بن بابنوس قال : قلنا لعائشة رضى الله عنها : يا أم المؤمنين ، كيف كان خُلُق رسول الله ﷺ ؟ - فذكره ، وفى حديثه : « ثم قالت : أتقرأ سورة المؤمنون ؟ - اقرأ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ... إلى العشر - قالت : هكذا كان خُلُق رسول الله ﷺ .

● وعن عروة رضى الله عنه عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت : « ما كان أحسن خُلُقاً من رسول الله ﷺ ، ما دعاه أحد من أصحابه ولا من

---

(١) أخرجه أبو نعيم .

(٢) كان الصبيان والعبيد والإماء يأتونه بالماء ليغسل وجهه وذراعيه ، ثم يحملون الماء معهم للتبرك به ، فكان صلى الله عليه وسلم لا يمتنع عن ذلك مهما كانت برودة الجو ، ولا يمنعه ضعف السائل أو ضآلة شأنه من الاستجابة له .

(٣) أخرجه أبو نعيم .

(٤) أخرجه البيهقى .

أهله إلا قال : « لبيك » ، ولذلك أنزل الله عَزَّ وجَلَّ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (١) .

● وعن قيس بن وهب رضى الله عنه ، عن رجل من بنى سراة قال : قلت لعائشة رضى الله عنها : أخبرينى عن خُلُق رسول الله ﷺ . فقالت : « أما تقرأ القرآن : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ ؟

قالت : كان رسول الله ﷺ مع أصحابه ، فصنعتُ له طعاماً وصنعت له حفصة رضى الله عنها طعاماً ، فسبقتنى حفصة فقلت للجارية : انطلقى فاكفنى قصعتها (٢) ، فأهوت أن تضعها بين يدى النبى ﷺ فكفأتها ، فانكفأت القصعة فانتشر الطعام ، فجمعها النبى ﷺ وما فيها من الطعام على الأرض فأكلوا ، ثم بعثتُ بقصعتى فدفعها النبى ﷺ إلى حفصة فقال : « خذوا ظرفاً مكان ظرفكم ، وكلوا ما فيها » .

قالت : فما رأيته - أى الغيظ - فى وجه رسول الله ﷺ (٣) .

● وعن صفية بنت حيى رضى الله عنها قالت : ما رأيتُ أحداً أحسن خُلقاً من رسول الله ﷺ ، لقد رأيته وقد ركب بى من خيبر على عجز ناقته ليلاً ، فجعلتُ أنعس فضرب رأسى مؤخرة الرحل ، فمسنى بيده يقول : « يا هذه ، مهلاً .. يا بنت حيى مهلاً » ، حتى إذا جاء « الصهباء » (٤) قال : « إنى أعتذر إليك يا صفية مما صنعتُ بقومك ، إنهم قالوا لى كذا ، وقالوا لى كذا » (٥) .

● وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ إذا صافح - أو صافحه - الرجل لا ينزع يده من يده حتى يكون الرجل ينزع يده ، وإن استقبله بوجهه لا يصرفه عنه حتى يكون الرجل ينصرف عنه ، ولا يُرى مقدماً ركبتيه بين يدى جليس له » (٦) .

---

(١) أخرجه أبو نعيم .
(٢) أى اقلبيها ليصب ما فيها .
(٣) رواه ابن أبى شيبة .
(٤) موضع على روحة من خيبر .
(٥) رواه الطبرانى فى الأوسط وأبو يعلى باختصار .
(٦) رواه الترمذى وابن ماجه .

وعنه رضى الله عنه قال : « ما رأيتُ رجلاً قط النقم أذن النبى ﷺ فينحى رأسه حتى يكون الرجل هو الذى ينحى رأسه ، وما رأيتُ رسول الله ﷺ آخذاً بيده رجل فترك يده حتى يكون الرجل هو الذى يدع يده » (١) .

وعنه أيضاً قال : « إن كانت الوليدة من ولائد أهل المدينة لتجئ فتأخذ بيد رسول الله ﷺ فما ينزع يده من يدها حتى تذهب به حيث شاءت » (٢) .

وعنه : « أن امرأة كان فى عقلها شئ ، فقالت : يا رسول الله ، إنَّ لى إليك حاجة ، فقال : « يا أم فلان ، انظرى أى السكك شئت حتى أقضى لك حاجتك » فخلا معها فى بعض الطرق حتى فرغت من حاجتها » (٣) .

● وعن عائشة رضى الله عنها قالت : ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادماً قط ، ولا امرأة ، ولا ضرب بيده شيئاً إلا أن يجاهد فى سبيل الله ، ولا خُيِّرَ بين شيئين قط إلا كان أحبهما إليه أيسرهما ، إلا أن يكون إثماً ، فإذا كان إثماً كان أبعد الناس من الإثم ، ولا انتقم لنفسه من شئ يؤتى إليه حتى تُنتهك حرمات الله ، فيكون هو ينتقم لله عَزَّ وجَلَّ » (٤) .

● وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : « لما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، أخذ أبو طلحة رضى الله عنه بيدى فانطلق بى إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنَّ أنساً غلام كيس فليخدمك . قال : فخدمته فى السفر والحَضَر ، والله ما قال لى لشئ صنعته : لِمَ صنعتَ هذا هكذا ؟ ولا لشئ لم أصنعه : لِمَ لَمْ تصنع هذا هكذا » ؟ (٥) .

وعنه رضى الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خُلُقاً ، فأرسلنى يوماً لحاجة فقلت : والله لا أذهب - وفى نفسى أن لا أذهب لما أمرنى به نبى الله ﷺ - فخرجتُ حتى أمر على الصبيان وهم يلعبون فى السوق ، فإذا

---

(١) رواه أبو داود . (٢) رواه ابن ماجه . (٣) رواه مسلم .
(٤) رواه أحمد . (٥) رواه مسلم .

رسول الله ﷺ قد قبض بقفاى من ورائى . قال : فنظرتُ إليه وهو يضحك فقال : « يا أنيس ، أذهبتَ حيث أمرتك » ؟ . قال : قلت : نعم أنا أذهب يا رسول الله .

قال أنس : « واللهِ لقد خدمته تسع سنين ما علمته قال لشئ صنعته : لِمَ فعلت كذا وكذا ، أو لشئ تركته : هلا فعلتَ كذا وكذا » [1] .

وعنه أيضاً قال : « خدمتُ رسول الله ﷺ سنين ، فما سبنى سبة قط ، ولا ضربنى ضربة ، ولا انتهرنى ولا عبس فى وجهى ، ولا أمرنى بأمر فتوانيت فيه فعاتبنى عليه ، فإن عاتبنى عليه أحد من أهله قال : « دعوه ، فلو قدِّر شئ لكان » [2] .

أرأيتم مثل هذا التواضع فى معاملة الأهل والخدم والعبيد والإماء والضعفاء وغيرهم ؟

* * *

● من تواضع النبى ﷺ :

كان رسول الله ﷺ متواضعاً فى أموره كلها .. متواضعاً فى مشيه ، متواضعاً فى ركوبه ، متواضعاً فى جلوسه ، متواضعاً فى منامه ، متواضعاً فى طعامه ، متواضعاً فى تعامله مع الناس .

ومن شأن المتكبر أن يسير متمهلاً ، مزهواً ، يدق الأرض بقدميه وكأنما يريد أن يخرق الأرض من تحتهما .

ولكنه صلى الله عليه وسلم كان إذا مشى تكفأ تكفياً ، وكان أسرع الناس مشية وأحسنها وأسكنها .

---

(١) رواه مسلم .

(٢) أخرجه أبو نعيم .

قال أبو هريرة رضى الله عنه : « ما رأيت أحسن من رسول الله ﷺ ، كأن الشمس تجرى فى وجهه ، وما رأيت أحداً أسرع فى مشيته من رسول الله ﷺ ، كأنما الأرض تطوى له ، وإنّا لنجهد أنفسنا وإنه غير مكترث » .

وقال علىّ كرّم الله وجهه : « كان رسول الله ﷺ إذا مشى تكفأ تكفياً ، كأنما ينحط من صبب » .

وقال مرة : « إذا مشى تقلّع » .

والتقلع الارتفاع عن الأرض بجملته كحال المنصب من الصبب ، وهى مشية أولى العزم والهمة والشجاعة ، وهى أعدل المشيات وأروعها للأعضاء ، وأبعدها عن مشية الهوج والمهانة والتماوت .

وكان أصحابه يمشون بين يديه وهو خلفهم ويقول : « دعوا ظهرى للملائكة » .. ولهذا جاء فى الحديث : « وكان يسوق أصحابه » .

وكان صلى الله عليه وسلم يمشى حافياً ومنتعلاً ، وكان يماشى أصحابه فرادى وجماعات .

وعن جابر رضى الله عنه قال : « جاء النبى ﷺ يعودنى ليس براكب بغلاً ولا برذوناً » (١) .

وعن عبد الله بن جبير الخزاعى رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ كان يمشى فى أناس من أصحابه ، فتستر بثوب ، فلما رأى ظله رفع رأسه فإذا هو بملاءة قد سُتِر بها فقال له : « مه » ! وأخذ الثوب فوضعه وقال : « إنما أنا بَشر مثلكم » (٢) .

وعن أنس رضى الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ يكثر الذكر ، ويقل اللغو ، ويركب الحمار ، ويلبس الصوف ، ويجيب دعوة المملوك ، ولو رأيته يوم خيبر على حمار خطامه من ليف » (٣) .

---

(١) رواه البخارى . (٢) أخرجه الطبرانى . (٣) أخرجه الطيالسى .

وزاد الترمذى عنه : « .. يعود المريض ويشهد الجنازة » .

وعن أنس أيضاً قال : « حج رسول الله ﷺ على رحل رث ، وعليه قطيفة لا تساوى أربعة دراهم فقال : « اللهم اجعله حجاً لا رياء فيه ولا سمعة » [١] .

وأخرج أبو يعلى عن أنس رضى الله عنه قال : « لما دخل رسول الله ﷺ مكة ، استشرفه الناس فوضع رأسه على رحله تخشعاً » .

كما أخرج البيهقى عن أنس قال : « دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح وذقنه على راحلته متخشعاً » .

وقال ابن إسحاق : حدثنى عبد الله بن أبى بكر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما انتهى إلى ذى طوى وقف على راحلته معتجراً [٢] بشقة بردة حمراء ، وإن رسول الله ﷺ ليضع رأسه تواضعاً لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح ، حتى إن عثنونه [٣] ليكاد يمس واسطة الرحل » .

وعن عامر بن ربيعة رضى الله عنه قال : « خرجت مع النبى ﷺ إلى المسجد فانقطع شسعه [٤] فأخذت نعله لأصلحها فأخذها من يدى وقال : « إنها أثرة ، ولا أحب الأثرة » [٥] .

* *

● وكان صلى الله عليه وسلم متواضعاً فى جلوسه ، فكان يجلس على الأرض ، وعلى الحصير ، والبساط .. وقالت نيلة بنت مخرمة رضى الله عنها : « أتيت رسول الله ﷺ وهو قاعد القرفص قالت : فلما رأيت رسول الله ﷺ كالمتخشع فى الجلسة أرعدت من الفرق » .

ولما قدم عليه عدى بن حاتم رضى الله عنه ، دعاه إلى منزله ، فألقت إليه

---

(١) أخرجه الترمذى .

(٢) الاعتجار بالعمامة : أن يلفها على رأسه ويرد طرفها على وجهه ولا يعمل شيئاً منها تحت ذقنه .

(٣) العثنون : هو اللحية . (٤) أى سير النعل . (٥) أخرجه البزار .

الجارية وسادة يجلس عليها ، فجعلها بينه وبين عدى وجلس على الأرض ، قال عدى : فعرفت أنه ليس بملك .

وعن جرير رضى الله عنه أن رجلاً أتى النبى ﷺ من بين يديه فاستقبلته رعدة ، فقال النبى ﷺ : « هوِّن عليك فإنى لست بملك ، إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد » (١) .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه أن رجلاً كلم رسول الله ﷺ يوم الفتح فأخذته رعدة .. فذكر نحوه (١) .

ولقد كان صلى الله عليه وسلم لا يميز نفسه فى الجلوس بين أصحابه فيجلس حيث ينتهى به المجلس ، حتى إن الغريب كان يقدم عليهم فيقول : أيكم محمد ؟!

وكان صلى الله عليه وسلم يستلقى أحياناً ، وربما وضع إحدى رجليه على الأخرى ، وكان يتكئ على الوسادة وربما اتكأ على يساره ، وربما اتكأ على يمينه ، وكان إذا احتاج فى خروجه توكأ على بعض أصحابه من الضعف .

* *

● وكان صلى الله عليه وسلم ينام على الفراش تارة ، وعلى النطع تارة ، وعلى الحصير تارة ، وعلى الأرض تارة ، وعلى السرير تارة بين رماله ، وتارة على كساء أسود .

وكان فراشه أدماً حشوه ليف ، وكان له مسح ينام عليه يُثنى بثنيتين ، وثنى له يوماً أربع ثنيات فنهاهم عن ذلك وقال : « ردوه على حاله الأول ، فإنه منعنى صلاتى الليلة » .

وكانت وسادته أدماً حشوها ليف .

---

(١) أخرجه الطبرانى .

(٢) أخرجه البيهقى .

وكان ينام على شقه الأيمن ويضع يده اليمنى تحت خده الأيمن .

وكان ينام أول الليل ويقوم آخره ، وربما سهر أول الليل فى مصالح المسلمين .. وكان صلى الله عليه وسلم تنام عينه ولا ينام قلبه .

وكان إذا نام لم يوقظوه حتى يكون هو الذى يستيقظ ، وكان إذا عرس بليل اضطجع على شقه الأيمن ، وإذا عرس قبيل الصبح نصب ذراعه ووضع رأسه على كفه .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : حدثنى عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : دخلت على رسول الله ﷺ وهو على حصير ، قال : فجلست فإذا عليه إزاره ليس عليه غيره ، وإذا الحصير قد أثر فى جنبه ، وإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع ، وقرظ [1] فى ناحية من الغرفة ، وإذا إهاب معلق . فابتدرت عيناى فقال : « ما يبكيك يابن الخطاب » ؟ ، فقال : يا نبى الله ، وما لى لا أبكى وهذا الحصير قد أثر فى جنبك ، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى ، وذاك كسرى وقيصر فى الثمار والأنهار ، وأنت نبى الله وصفوته وهذه خزانتك ؟! فقال : « يابن الخطاب ، أما ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا » ؟ [2] .

وأخرجه الحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم ، وفى لفظه : « قال عمر : استأذنتُ على رسول الله ﷺ فدخلتُ عليه فى مشربة [3] وإنه لمضطجع على خصفة [4] إن بعضه لعلى التراب ، وتحت رأسه وسادة محشوة ليفاً [5] وإن فوق رأسه لإهاباً عطناً [6] ، وفى ناحية المشربة قرظ ، فسلمت عليه فقلت : أنت نبى الله وصفوته ، وكسرى وقيصر على سُرُر الذهب وفُرُش الديباج والحرير ؟! فقال : « أولئك عُجِّلت لهم طيباتهم وهى وشيكة [7] الانقطاع ، وإنَّا قوم أُخِّرت لنا طيباتنا فى آخرتنا » .

---

(١) القرظ : ورق السلم يدبغ به . (٢) أخرجه أحمد . (٣) أى غرفة .

(٤) أى الثوب الغليظ جداً . (٥) أى قشر النخل وما شاكله .

(٦) من عطن الجلد إذا تمزق شعره وانتن فى الدباغ . (٧) أى سريعة .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أن رسول الله ﷺ دخل عليه عمر وهو على حصير قد أثر فى جنبه ، فقال : يا رسول الله ، لو اتخذت فرشاً أوثر [1] من هذا ، فقال : « ما لى وللدنيا ، ما مثلى ومثل الدنيا إلا كراكب سار فى يوم صائف فاستظل تحت شجرة ساعة ثم راح وتركها » [2] .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : دخلت علىّ امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله ﷺ قطيفة مثنية ، فبعثت إلىّ بفراش حشوه الصوف ، فدخل علىّ رسول الله ﷺ فقال : « ما هذا يا عائشة » ؟ قالت : يا رسول الله ، فلانة الأنصارية دخلت فرأت فراشك فبعثت إلىّ بهذا ، فقال : « رديه يا عائشة ، فوالله لو شئتُ لأجرى الله معى جبال الذهب والفضة » [3] .

* *

● وكان صلى الله عليه وسلم متواضعاً فى طعامه ، فكان لا يرد من الطعام موجوداً ، ولا يتكلف مفقوداً .. فما قُرِّب إليه شئ من الطيبات إلا أكله ، إلا أن تعافه نفسه فيتركه من غير تحريم ، وما عاب طعاماً قط ، إن اشتهاه أكله وإلا تركه .

لم يكن يرد طيباً ولا يتكلفه ، بل كان يأكل ما تيسر ، فإن أعوزه صبر حتى إنه ليربط على بطنه الحجر من الجوع .

ويُرى الهلال والهلال والهلال - ثلاثة أهلة - ولا يوقد فى بيته نار .

وكان معظم مطعمه يوضع على الأرض فى السفر وهى كانت مائدته ، وكان يأكل بأصابعه الثلاثة ويلعقها إذا فرغ - وهو أشرف ما يكون من الأكلة ، فإن المتكبر يأكل بأصبع واحدة ، والجَشِع الحريص يأكل بالخمس ويدفع بالراحة .

وكان لا يأكل متكئاً - والاتكاء على ثلاثة أنواع ، أحدها : الاتكاء على

---

(١) أى أوطأ وألين .

(٢) أخرجه أحمد وابن حبان فى صحيحه والبيهقى .

(٣) أخرجه البيهقى .

الجنب ، والثانى : التربع ، والثالث : الاتكاء على إحدى يديه وأكله بالأخرى ، والثلاثة مذمومة .

وكان صلى الله عليه وسلم يسمى الله تعالى على أول طعامه ، ويحمده فى آخره ، وكان إذا فرغ من طعامه لعق أصابعه ولم يكن لهم مناديل يمسحون بها أيديهم ، ولم يكن عادتهم غسل أيديهم كلما أكلوا .

وكان أكثر شربه قاعداً ، بل زجر عن الشرب قائماً .

أخرج أحمد عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : جلس جبريل عليه السلام إلى النبى ﷺ فنظر إلى السماء فإذا مَلَك ينزل ، فقال جبريل : هذا المَلَك ما نزل منذ خُلِق قبل الساعة ، فلما نزل قال : يا محمد ، أرسلنى إليك ربك : أفمَلكاً نبياً أجعلك أو عبداً رسولاً؟ قال جبريل : تواضع يا محمد . فقال صلى الله عليه وسلم : « بل عبداً رسولاً » .

ورواه الهيثمى عن عائشة رضى الله عنها بمعناه مع زيادة فى أوله ، وزاد فى آخره : فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك لا يأكل متكئاً ويقول : « آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد » .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « يجلس على الأرض ، ويأكل على الأرض ، ويعقل الشاة ، ويجيب دعوة المملوك على خبز الشعير » [1] .

وعنه أيضاً قال : « إن كان الرجل من أهل العوالى ليدعو رسول الله ﷺ بنصف الليل على خبز الشعير فيجيب » .

وعن أنس رضى الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ يُدعى إلى خبز الشعير والإهالة السنخة [2] فيجيب ، ولقد كانت له درع عند يهودى فما وَجَد ما يفكها حتى مات » [3] .

---

(١) رواه الطبرانى ، ويعقل الشاة : أى يضع رجلها بين ساقه وفخذه ويحتلبها .

(٢) هو كل شئ من الأدهان مما يؤتدم به ، وقيل : ما أذيب من الألية والشحم ، وقيل : الدسم الجامد ، والسنخة : أى متغيرة الريح .

(٣) رواه الترمذى .

وعن أبى أمامة رضى الله عنه قال : « كانت امرأة ترافث الرجال ، وكانت بذيئة [١] ، فمرت بالنبى ﷺ وهو يأكل ثريداً على طربال [٢] فقالت : انظروا إليه ، يجلس كما يجلس العبد ، ويأكل كما يأكل العبد ! فقال النبى ﷺ : « وأى عبد أعبد منى » ؟ قالت : ويأكل ولا يطعمنى ؟ قال : « كلى » ، قالت : ناولنى بيدك . فناولها فقالت : أطعمنى مما فى فِيكَ ! فأعطاها فأكلت فغلبها الحياء فلم ترافث أحداً حتى ماتت » [٣] .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : « لبس رسول الله ﷺ الصوف واحتذى المخصوف » ، وقال : « أكل رسول الله ﷺ بشعاً ولبس حلساً خشناً .

قيل للحسن : ما البشع ؟ قال : غليظ الشعير ، ما كان النبى ﷺ يسيغه إلا بجرعة من ماء » [٤] .

وعن أم أيمن رضى الله عنها : أنها غربلت [٥] دقيقاً فصنعته للنبى ﷺ رغيفاً فقال : « ما هذا » ؟ قالت : طعام نصنعه بأرضنا فأحببتُ أن أصنع لك منه رغيفاً . فقال : « رديه ثم اعجنيه » [٦] .

وعن سلمى امرأة أبى رافع رضى الله عنهما قالت : « دخل علىّ الحسن بن علىّ وعبد الله بن جعفر وعبد الله بن عباس رضى الله عنهم فقالوا : اصنعى لنا طعاماً مما كان يعجب النبى ﷺ أكله ، قالت : يا بنىّ ، إذن لا تشتهونه اليوم ، فقمت فأخذت شعيراً فطحنته ونسفته وجعلت منه تَخْبِزة ، وكان أُدمه الزيت ، ونثرت عليه الفلفل فقربته إليهم وقلت : كان النبى ﷺ يحب هذا » [٧] .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ حتى دخل

---

(١) البذاء : الفحش من القول .

(٢) هو البناء المرتفع كالصومعة وغيرها ، وقيل : علم يبنى فوق الجبل ، أو قطعة من الجبل .

(٣) رواه الطبرانى . (٤) أخرجه ابن ماجه والحاكم . (٥) أى نخلت .

(٦) أخرجه ابن ماجه وابن أبى الدنيا . (٧) أخرجه الطبرانى .

بعض حيطان الأنصار ، فجعل يلتقط من التمر ويأكل ، فقال لى : « يابن عمر، مالك لا تأكل » ؟ قلت : لا أشتهيه يا رسول الله . قال : « ولكنى اشتهيه وهذه صبح رابعة منذ لم أذق طعاماً ، ولو شئتُ لدعوتُ ربى عَزَّ وجَلَّ فأعطانى مثل مُلْك كسرى وقيصر ، فكيف بك - يابن عمر - إذا بقيتَ فى قوم يخبئون رزقهم سنتهم ويضعف اليقين » ؟

يقول ابن عمر : فوالله ما برحنا حتى نزلت : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (١) ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنّ الله لم يأمرنى بكنز الدنيا ولا باتباع الشهوات ، فمَن كنز دنيا يريد بها حياة باقية ، فإنّ الحياة بيد الله عَزَّ وجَلَّ ، ألا وإنى لا أكنز ديناراً ولا درهماً ، ولا أخبأ رزقاً لغد » (٢) .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : أُتى رسول الله ﷺ بقدح فيه لبن وعسل فقال : « شربتين فى شربة ، وأدمين فى قدح ؟ لا حاجة لى به ، أما أنى لا أزعم أنه حرام ، ولكن أكره أن يسألنى الله عَزَّ وجَلَّ عن فضول الدنيا يوم القيامة ، أتواضع لله ، فمَن تواضع لله رفعه الله ، ومَن تكبر وضعه الله ، ومَن اقتصد أغناه الله ، ومَن أكثر ذكر الموت أحبه الله » (٣) .

وعن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال : « ألستم فى طعام وشراب ما شئتم ؟ لقد رأيت نبيكم صلى الله عليه وسلم وما يجد من الدقل (٤) ما يملأ بطنه » .

وفى رواية لمسلم عنه أنه قال : « لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل اليوم يتلوى (٥) ما يجد من الدقل ما يملأ بطنه » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « دخلتُ على النبى ﷺ وهو ويصلى

---

(١) العنكبوت : ٦٠ .

(٢) أخرجه أبو الشيخ وابن حبان .

(٣) أخرجه الطبرانى فى الأوسط .

(٤) أى أردأ التمر .

(٥) أى يضطرب من الجوع .

جالساً ، فقلت : يا رسول الله ، أراك تصلى جالساً فما أصابك ؟ قال : « الجوع يا أبا هريرة » فبكيت ، فقال : « لا تبك يا أبا هريرة فإنّ شدة الحساب يوم القيامة لا تصيب الجائع إذا احتسب فى دار الدنيا » (١) .

وعن عروة عن عائشة رضى الله عنهما أنها كانت تقول : والله يابن أختى ، إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال - ثلاثة أهلة - فى شهرين ، ما أوقد فى أبيات رسول الله ﷺ نار . قلت : يا خالة ، فما كان يعيشكم ؟ قالت : الأسودان ، التمر والماء ، إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار وكانت لهم منائح ، فكانوا يرسلون إلى رسول الله ﷺ من ألبانها فيسقيناه » (٢) .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : خرج أبو بكر رضى الله عنه بالهاجرة إلى المسجد ، فسمع عمر رضى الله عنه فقال : يا أبا بكر ، ما أخرجك هذه الساعة ؟ قال : ما أخرجنى إلا ما أجد من حاق الجوع - أى شدته - قال : وأنا والله ما أخرجنى غيره .

فبينما هما كذلك إذ خرج عليهما رسول الله ﷺ فقال : « ما أخرجكما هذه الساعة » ؟ قالا : والله ما أخرجنا إلا ما نجده فى بطوننا من حاق الجوع . قال : « وأنا - والذى نفسى بيده - ما أخرجنى غيره ، فقوما » .

فانطلقوا فأتوا باب أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه ، وكان أبو أيوب يدخر لرسول الله ﷺ طعاماً كان أو لبناً ، فأبطأ عليه يومئذ فلم يأت لحينه فأطعمه لأهله وانطلق إلى نخله يعمل فيه ، فلما انتهوا إلى الباب خرجت امرأته فقالت : مرحباً بنبى الله (صلى الله عليه وسلم) وبمن معه . فقال لها النبى ﷺ : « أين أبو أيوب » ؟ ، فسمعه - وهو يعمل فى نخل له - فجاء

---

(١) أخرجه أبو نعيم والخطيب وابن عساكر .

(٢) أخرجه الشيخان ، والمنائح : جمع منيحة ، وأصلها شاة أو بقرة أو ناقة تجعل لبنها لغيرك ينتفع به ثم ترد إليك .

يشتد فقال : مرحباً بنبى الله صلى الله عليه وسلم وبمن معه ، يا نبى الله ، ليس بالحين الذى كنتَ تجئ فيه ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « صدقت » .

قال : فانطلق فقطع عذقاً من النخل فيه من كل التمر والرطب والبسر . فقال صلى الله عليه وسلم : « ما أردت إلى هذه ؟ ألا جنيت لنا من تمره » ؟ قال : يا رسول الله ، أحببتُ أن تأكل من تمره ورطبه وبُسره ، ولأذبحن لك مع هذا . قال : « إن ذبحتَ ، فلا تذبح ذات در » .

فأخذ عناقاً أو جدياً فذبحه ، وقال لامرأته : اخبزى واعجنى لنا ، وأنتم أعلم بالخبز .

فأخذ نصف الجدى فطبخه وشوى نصفه ، فلما أدرك الطعام ووُضع بين يدى النبى ﷺ وأصحابه أخذ من الجدى فجعله فى رغيف ، وقال : « يا أبا أيوب ، أبلغ بهذا فاطمة فإنها لم تصب مثل هذا منذ أيام » .. فذهب أبو أيوب إلى فاطمة رضى الله عنها .

فلما أكلوا وشبعوا قال النبى ﷺ : « خبز ، ولحم ، وتمر ، وبسر ، ورطب !! - ودمعت عيناه - والذى نفسى بيده ، إن هذا هو النعيم الذى تُسئلون عنه يوم القيامة » .

فكبر ذلك على أصحابه فقال : « بل إذا أصبتم مثل هذا فضربتم بأيديكم فقولوا : بسم الله ، فإذا شبعتم فقولوا : الحمد لله الذى أشبعنا وأنعم فأفضل، فإن هذا كفاف بهذا » [1] .

وعن ابن جرير عن عائشة رضى الله عنها قالت : « ما شبع رسول الله ﷺ من خبز بر ثلاثة أيام تباعاً ، منذ قدم المدينة حتى مضى إلى سبيله » .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : إن فاطمة رضى الله عنها ناولت

---

(١) أخرجه الطبرانى وابن حبان .

النبى ﷺ كسرة من خبز الشعير ، فقال لها : « هذا أول طعام أكله أبوك منذ ثلاثة أيام » [1] .

وعن أبى طلحة رضى الله عنه قال : « شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع ، ورفعنا ثيابنا عن حجر على بطوننا ، فرفع رسول الله ﷺ عن حجرين » [2] .

والأمثلة عن تواضعه - صلى الله عليه وسلم - وزهده وصبره أكثر من أن يحصيها القلم .

* *

● وباع رسول الله ﷺ واشترى ، وكان شراؤه - بعد أن أكرمه الله تعالى برسالته - أكثر من بيعه ، وكذلك بعد الهجرة لا يكاد يُحفظ عنه البيع إلا فى قضايا يسيرة أكثرها لغيره .

وأما شراؤه فكثير ، وآجر واستأجر ، واستئجاره كان أكثر من إيجاره ، وإنما أجر نفسه قبل النبوة فى رعاية الغنم ، وأجر نفسه من خديجة رضى الله عنها فى سفره بمالها إلى الشام .

واستدان برهن وبغير رهن ، واستعار واشترى بالثمن الحال والمؤجل ، وضمن ضماناً خاصاً على ربه على أعمال مَن عملها كان مضموناً له بالجنة ، وضماناً عاماً لديون مَن توفى من المسلمين ، ولم يدع وفاءً أنها عليه وهو يوفيها .

كان صلى الله عليه وسلم أحسن الناس معاملة ، وكان إذا استسلف سلفاً قضى خيراً منه ، وكان إذا استسلف من رجل سلفاً قضاه إياه ودعا له .

واشترى مرة شيئاً وليس عنده ثمنه ، فأربح فيه فباعه وتصدّق بالربح على أرامل بنى عبد المطلب .. وهذا لا يناقض شراء فى الذمة إلى أجل فهذا شئ وهذا شئ ..

---

(١) أخرجه أحمد .

(٢) أخرجه الترمذى .

وكان صلى الله عليه وسلم يستثنى فى يمينه تارة ، ويكفِّرها تارة ، ويمضى فيها تارة .. وكان يمازح ويقول فى مزاحه الحق ، ويورى ولا يقول فى ترويته إلا الحق .

كان يشير ويستشير ، وكان يعود المريض ، ويشهد الجنازة ، ويجيب الدعوة ، ويمشى مع الأرملة والمسكين والضعيف فى حوائجهم ، وسمع الشِعر وأثاب عليه ، وسابق بنفسه على الأقدام ، وصارع ، وخصف نعله بيده ، ورقع ثوبه بيده ، ورقع دلوه وحلب شاته .... وخدم أهله ونفسه ، وحمل معهم اللَّبِن فى بناء المسجد ، وربط على بطنه الحجر من الجوع تارة وشبع تارة ، وأضاف وأضيف ، وتداوى وكوى ولم يكتو ، ورقى ولم يسترق ، وحمى المريض مما يؤذيه ، واحتجم فى الأخدعين والكاهل [1] .

لقد كان رسول الله ﷺ صادقاً مع نفسه ، صريحاً فى عواطفه ومشاعره ، يعيش حياة قومه .. فكان فصيحاً عذباً فى كلامه ، يضحك مما يُضحِك الناس ويبكى مما يُبكيهم .

والبكاء - كما يقول ابن القيم - أنواع : « بكاء الرحمة والرأفة ، وبكاء الخوف والخشية ، وبكاء المحبة والشوق ، وبكاء الفرح والسرور ، وبكاء الجزع من ورود المؤلم وعدم احتماله ، وبكاء الحزن والفرق .

والفرق بين بكاء الفرق وبكاء الخوف : أن بكاء الحزن يكون على ما مضى من حصول مكروه أو فوات محبوب ، وبكاء الخوف يكون لما يُتوقع فى المستقبل من ذلك .

والفرق بين بكاء السرور والفرح وبكاء الحزن : أن دمعة السرور باردة والقلب فرحان ، ودمعة الحزن حارة والقلب حزين .. ولهذا يقال لما يُفرَح به : هو قرة عَيْن ، وأقرّ الله به عينه ، ولما يُحزن : هو سخينة العين ، وأسخن الله عينه .

---

(١) وهو ما بين الكتفين .

ومن أنواع البكاء : بكاء الخور والضعف ، وبكاء النفاق - وهو أن تدمع العين والقلب قاسى ، فيُظهر صاحبه الخشوع وهو من أقسى الناس قلباً .

وكذا البكاء المستعَار والمستأجَر عليه كبكاء النائحة التى تبيع عبرتها وتبكى بشجو غيرها .. وبكاء الموافقة ، وهو أن يرى الرجل الناس يبكون لأمر ورد عليهم فيبكى معهم ولا يدرى لأى شئ يبكون ، ولكنه يراهم يبكون فيبكى معهم .

وما كان من ذلك دمعاً بلا صوت فهو بكاء مقصور ، وما كان معه صوت فهو بكاء ممدود على نيار الأصوات ، وما كان مستدعىً متكلفاً فهو التباكى ، وهو نوعان : محمود ومذموم ، فالمحمود أن يُستجلَب لرقة القلب ولخشية اللّه تعالى لا للرياء والسمعة ، والمذموم يُجتلب لأجل الخلق » (١) .

وقد كان بكاء الرسول اللّه ﷺ تارة رحمة للميت ، وتارة خوفاً على أمته وشفقة ، وتارة من خشية اللّه تعالى ، وتارة عند سماع القرآن ، وهو بكاء اشتياق ومحبة واجلال مصاحب للخوف والخشية .

وكان بكاؤه صلى اللّه عليه وسلم من جنس ضحكه ، ولم يكن بشهيق ورفع صوت ، كما لم يكن ضحكه بقهقهة ، ولكن تدمع عيناه حتى تهملا ويُسمع لصدره أزيز .

وكان جُلُّ ضحكه عليه الصلاة والسلام التبسم ، بل كله التبسم ، فكان نهاية ضحكه أن تبدو نواجذه ، وكان يضحك مما يُضحَك منه ، وهو مما يُتعَجب من مثله ويُستَغرب وقوعه ويُستندر .

لقد دمعت عينا رسول اللّه ﷺ لموت ابنه إبراهيم وبكى رحمة له وقال : « تدمع العين ، ويحزن القلب ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ، وإنّا بك يا إبراهيم لمحزونون » .

---

(١) انظر زاد المعاد ، لابن القيم - مرجع سابق : ٤٦/١

وبكى لما شاهد إحدى بناته ونفسها تفيض .

وبكى لما قرأ عليه ابن مسعود رضى الله عنه سورة النساء وانتهى إلى قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيداً ﴾ (١) .

وبكى لما مات عثمان بن مظعون رضى الله عنه .

وبكى لما كُسفت الشمس ، وصلى صلاة الكسوف وجعل يبكى فى صلاته وجعل ينفخ ويقول : « ربِّ ، ألم تعدنى أن لا تعذبهم وأنا فيهم وهم يستغفرون ؟ ونحن نستغفرك » .

وبكى لما جلس على قبر إحدى بناته .

وبكى لما جلس على قبر أمه .

وكان صلى الله عليه وسلم يبكى أحياناً فى صلاته .

وهكذا - كما قدمنا - كان بكاؤه صلى الله عليه وسلم تارة رحمة للميت ، وتارة خوفاً على أمته وشفقة ، وتارة من خشية الله تعالى ، وتارة عند سماعه للقرآن .. فكان بكاء اشتياق ومحبة واجلال ، مصاحب للخوف والخشية .

* *

● وكان صلى الله عليه وسلم أفصح خلق الله وأعذبهم كلاماً ، وأسرعهم أداءً ، وأحلاهم منطقاً .. حتى إن كلامه يأخذ بالقلوب ويسبى الأرواح ، ويشهد له بذلك الجميع ، حتى أعداؤه .

وكان إذا تكلم ، تكلم بكلام مفصّل بيّن ، يعده العاد ، ليس بهزر مسرع لا يُحفظ ، ولا منقطع تتخلله السكتات بين أفراد الكلام .

وكان كثيراً ما يعيد الكلام ثلاثاً ليُعقل عنه ، وكان إذا سلّم سلّم ثلاثاً ..

---

(١) النساء : ٤١

وكان طويل السكوت ، لا يتكلم فى غير حاجة ، يفتتح الكلام ويختتمه بأشداقه ، ويتكلم بجوامع الكلام ، فصل لا فضول ولا تقصير .

وكان صلى الله عليه وسلم لا يتكلم فيما لا يعنيه ، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه ، وإذا كره الشئ عُرِف فى وجهه ، ولم يكن عليه الصلاة والسلام فاحشاً ولا متفحشاً ولا صخاباً .

ألم نقل : إنه صلى الله عليه وسلم كان صادقاً مع نفسه ، صريحاً فى عواطفه ومشاعره ، يعيش حياة قومه ؟!

* * *

● من حلم النبى ﷺ :

أما عن حلمه - صلى الله عليه وسلم - فحدِّث ولا حَرَج .

أخرج البخارى عن عبد الله رضى الله عنه قال : « لما كان يوم حنين ، آثر النبى ﷺ ناساً ، أعطى الأقرع بن حابس رضى الله عنه مائة من الإبل ، وأعطى عيينة رضى الله عنه مثل ذلك ، وأعطى ناساً ، فقال رجل : ما أريد بهذه القسمة وجه الله (!!) ، فقلت : لأخبرن النبى ﷺ فأخبرته فقال : « رحم الله موسى ، فقد أوذى بأكثر من هذا فصبر » .

وفى رواية له : « فقال رجل : والله إن هذه لقسمة ما عُدِلَ فيها وما أُرِيدَ فيها وجه الله ، فقلت : والله لأخبرنّ رسول الله ﷺ ، فأتيته فأخبرته فقال : « مَن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله ؟ .. رحم الله موسى فقد أوذى بأكثر من هذا فصبر » .

● وفى الصحيحين من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : « بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسماً ، إذ أتاه « ذو الخويصرة » - رجل من بنى تميم - فقال : يا رسول الله ، اعدل (!!) فقال رسول الله ﷺ : « ويلك ، ومَن يعدل إن لم أعدل ؟ .. لقد خِبْتَ وخَسِرْتَ .. إذا لم أعدل فمن يعدل » ؟!

فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : يا رسول الله ، ائذن لى فيه فأضرب عنقه ، فقال رسول الله ﷺ : « دعه ، فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم ، يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم [١] يمرقون [٢] من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية ، يُنظر إلى نصله فلا يوجد فيه شئ ، ثم إلى رصافه [٣] فلا يوجد فيه شئ ، ثم يُنظر إلى نضيه - وهو قدحه - فلا يوجد فيه شئ ، ثم ينظر إلى قذذه [٤] فلا يوجد فيه شئ ، قد سبق الفرث والدم ، آيتهم رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدى المرأة ، أو مثل البضعة تدردر [٥] ، يخرجون على حين فُرْقة من الناس » .

قال أبو سعيد : « فأشهد أنى سمعت هذا من رسول الله ﷺ ، وأشهد أنَّ علياً بن أبى طالب رضى الله عنه قاتلهم وأنا معه وأمر بذلك الرجل فالتُمس ، فأُتِىَ به حتى نظرت إليه على نعت رسول الله ﷺ الذى نعت » .

● وأخرج الشيخان عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : « أن عبد الله بن أُبَىّ لما مات ، جاء ابنه إلى النبى ﷺ فقال : أعطنى قميصك أكفنه فيه ، وصلِّ عليه واستغفر له ، فأعطاه قميصه وقال : « آذنى أُصلِّى عليه » ، فآذنه ، فلما أراد أن يصلى جذبه عمر رضى الله عنه فقال : أليس الله نهاك أن تصلى على المنافقين ؟ فقال : « أنا بين خيرتين .. قال : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ » [٦] ، فصلى عليه فنزلت هذه الآية : ﴿ وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً ﴾ [٧] .

وعن عمر رضى الله عنه قال : « لما توفى عبد الله بن أُبَىّ ، دعى رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة عليه فقام إليه ، فلما وقف عليه يريد الصلاة تحولتُ

---

(١) جمع ترقوة : وهى مقدم الحلق فى أعلى الصدر حيث يترقى فيه النفس .

(٢) أى يخرجون .

(٣) عقب يلوى على مدخل النصل .

(٤) ريش السهم ، وواحدتها قذة .

(٥) أى ترجرج ، تجئ وتذهب .

(٦) التوبة : ٨٠

(٧) التوبة : ٨٤

حتى قمتُ فى صدره فقلت : يا رسول الله ، أعلى عدو الله عبد الله بن أُبَىّ القائل يوم كذا : كذا وكذا - يُعدِّد أيامه .

قال : ورسول الله ﷺ يتبسم ، حتى إذا أكثرتُ عليه قال : « أخِّر عنى يا عمر ، إنى خُيِّرتُ فاخترت ، قد قيل لى : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ (١) ، لو أعلم أنى لو زدتُ على السبعين غُفِر له لزدتُ » .

قال : ثم صلّى عليه ومشى معه وقام على قبره حتى فُرِغ منه ، قال : فعجبتُ من جرأتى على رسول الله ﷺ ، والله ورسوله أعلم .

قال : فوالله ، ما كان إلا يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان : ﴿ وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ، إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَاسِقُونَ * وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ (٢) ، فما صلّى رسول الله ﷺ بعده على منافق ولا قام على قبره حتى قبضه الله عزّ وجلّ (٣) .

وعن جابر رضى الله عنه قال : « لما مات عبد الله بن أُبَىّ ، أتى ابنه النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنك إن لم تأته لم نزل نُعيِّر بهذا ، فأتاه النبى ﷺ فوجده قد أدخل فى حفرته ، فقال : « أفلا قبل أن تدخلوه » ؟ ، فأُخرج من حفرته ، وتفل عليه من ريقه من قرنه إلى قدمه ، وألبسه قميصه » (٤) .

وفى رواية البخارى قال : « أتى النبى ﷺ عبد الله بن أُبَىّ بعد ما أُدخل فى قبره ، فأمر به فأُخرج ووُضِع على ركبتيه ، ونفث عليه من ريقه ، وألبسه قميصه » .

---

(١) التوبة : ٨٠ .

(٢) التوبة : ٨٤ - ٨٥

(٣) رواه أحمد فى المسند .

(٤) رواه أحمد فى المسند .

● وأخرج أحمد عن زيد بن أرقم رضى الله عنه قال : « سحر النبىَّ ﷺ رجلٌ من اليهود فاشتكى لذلك أياماً ، قال : فجاءه جبريل عليه السلام فقال : إنّ رجلاً من اليهود سحرك وعقد لك عقداً فى بئر كذا وكذا ، فأرْسِل إليها مَن يجئ بها . فبعث رسول الله ﷺ فاستخرجها فجاءه بها فحللها . قال : فقام رسول الله ﷺ كأنما نشط من عقال ، فما ذكر ذلك لليهودى ولا رآه فى وجهه حتى مات » .

وعند البخارى عن عائشة رضى الله عنها قالت : « كان رسول الله ﷺ سُحِر حتى كان يرى أنه يأتى النساء ولا يأتيهن - قال سفيان : وهذا أشد ما يكون من السحر إذا كان كذا - فقال : « يا عائشة ، أعلمتِ أنّ الله قد أفتانى فيما استفتيته فيه .. أتانى رجلان فقعد أحدهما عند رأسى والآخر عند رجلىّ ، فقال الذى عند رأسى للآخر : ما بال الرجل ؟ قال : مطبوب [1] ، قال : ومَن طبَّه ؟ قال : لبيد بن أعصم [2] ، قال : وفيم ؟ قال : فى مشط ومشاطة [3] ، قال : وأين ؟ قال : فى جف [4] طلعة ذكر تحت رعوفة [5] فى بئر ذروان » [6] .

قالت : فأتى البئر حتى استخرجه ، فقال : هذه البئر التى أريتها ، وكأن ماءها نقاعة الحناء ، وكأن نخلها رؤوس الشياطين » .

---

(١) أى مسحور .

(٢) وهو رجل من بنى زريق حليف اليهود ، وكان منافقاً .

(٣) ما يخرج من الشَعر الذى يسقط من الرأس إذا سرح بالمشط .

(٤) الجُفّ - بضم الجيم وتشديد الفاء : وعاء طلع النخل ، وهو الغشاء الذى يكون فوقه ، ويطلق على الذكر والأنثى ، ولذا قيده بالذكر ، وروى « جُبّ » - بموحدة - بمعناه .

(٥) هى صخرة تترك فى أسفل البئر إذا حفرت تكون ناتئة هناك ، فإذا أرادوا تنقية البئر جلس المنقى عليها - وقيل : حجر يكون على رأس البئر يقوم المستقى عليها .

(٦) بئر لبنى زريق بالمدينة .

قالت : فاستخرج ، فقلت : أفلا تنشَّرت [1] ؟ قال : أما اللّه فقد شفانى ، وأكره أن أثير على أحد من الناس شراً » .

وعند أحمد عن عائشة رضى اللّه عنها وفيه : « قالت : لبث النبى ﷺ ستة أشهر يرى أنه يأتى ، فأتاه ملكان .... » ثم ذكر الحديث .

● وأخرج الشيخان عن أنس بن مالك رضى اللّه عنه : « أن امرأة يهودية أتت النبى ﷺ بشاة مسمومة فأكل منها ، فجئ بها إلى رسول اللّه ﷺ فسألها عن ذلك قالت : أردتُ قتلك ، فقال : « ما كان اللّه ليسلطك علىَّ » - أو قال : « على ذلك » - قالوا : ألا تقتلها ؟ قال : « لا » .. قال أنس : فما زلت أعرفها فى لهوات رسول اللّه ﷺ » .

وعند البيهقى عن أبى هريرة رضى اللّه عنه : « أن امرأة من يهود أهدت لرسول اللّه ﷺ شاة مسمومة فقال لأصحابه : « أمسكوا ، فإنها مسمومة » .. وقال لها : « ما حملك على ما صنعت » ؟ قالت : أردتُ أن أعلم إن كنتَ نبياً فسيطلعك اللّه عليه ، وإن كنتَ كاذباً أريح الناس منك . قال : فما عرض لها رسول اللّه ﷺ » .

وعند أحمد عن ابن عباس رضى اللّه عنه نحو حديث أبى هريرة عند البيهقى ، وزاد : « قال : فكان رسول اللّه ﷺ إذا وجد شيئاً احتجم ، قال : فسافر مرة فلما أحرم وجد من ذلك شيئاً فاحتجم » .

وعند أبى داود عن جابر رضى اللّه عنه : « أن يهودية من أهل خيبر سمت شاة مصلية ، ثم أهدتها لرسول اللّه ﷺ ، فأخذ رسول اللّه ﷺ الذراع فأكل منها ، وأكل رهط من أصحابه معه . ثم قال رسول اللّه ﷺ : « ارفعوا أيديكم » ،

---

(١) يحتمل كونه من « النشرة » وهى الرقية ، وكونه من « النشر » أى الاستخراج ، أى : هلا استخرجت الدفين ليراه الناس لما فيه من إظهار الفتن ، وقد أخرجه - صلى اللّه عليه وسلم - عن موضعه ودفنه .

وأرسل صلى الله عليه وسلم إلى المرأة فدعاها فقال لها : « أسممت هذه الشاة » ؟ قالت اليهودية : مَن أخبرك ؟ قال : « أخبرتنى هذه التى فى يدى » - وهى الذراع - قالت : نعم ، قال : « فما أردت بذلك » ؟ قالت : قلتُ إن كان نبياً فلن تضرك ، وإن لم تكن نبياً استرحنا منك ، فعفا عنها رسول الله ﷺ ولم يعاقبها .

ومات بعض أصحابه الذين أكلوا من الشاة ، واحتجم النبى ﷺ على كاهله من أجل الذى أكل من الشاة ، حجمه أبو هند رضى الله عنه بالقرن والشفرة - وهو مولى لبنى بياضة من الأنصار .

وأخرجه أبو داود عن أبى سلمة رضى الله عنه نحو حديث جابر ، وفيه : « فمات بشر بن البراء بن المعرور رضى الله عنه » ، فذكره وفيه : « فأمر رسول الله ﷺ فقتلت » .

لقد عفا الرسول ﷺ عن اليهودية حين كان الأمر يخصه وحده ، وقد علم أن الله سوف ينجيه من كيدها ، فلما مات بشر من أثر الأكلة ، أمر الرسول ﷺ بقتلها قصاصاً .

وعن ابن إسحاق عن مروان بن عثمان بن أبى سعيد بن المعلى رضى الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ قد قال فى مرضه الذى توفى فيه - ودخلت عليه أخت بشر بن البراء بن معرور : « يا أم بشر ، إنّ هذا الأوان وجدت انقطاع أبهرى من الأكلة التى أكلتُ مع أخيك بخيبر » .

قال ابن هشام : « الأبهر : العرْق المعلق بالقلب » . قال : « فكان المسلمون ليرون أن رسول الله ﷺ مات شهيداً مع ما أكرمه الله به من النبوة » .

● وأخرج أحمد عن جعدة بن خالد بن الصمة الخشمى رضى الله عنه قال : « سمعت النبى ﷺ - ورأى رجلاً سميناً - فجعل النبى ﷺ يومئ إلى بطنه ويقول : « لو كان هذا فى غير هذا لكان خيراً لك » .

قال : « وأُتِى النبى ﷺ برجل فقيل : هذا أراد أن يقتلك . فقال النبى ﷺ : « لم ترع ، ولو أردتَ ذلك لم يسلطك الله علىّ » .

● وأخرج أحمد عن أنس رضى الله عنه قال : « لما كان يوم الحديبية ، هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلاً من أهل مكة بالسلاح من قِبَل جبل التنعيم ويريدون غرة رسول الله ﷺ ، فدعا عليهم فأخذوا . قال عفان : فعفا عنهم ونزلت هذه الآية : ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ (١) .

وأخرجه النسائى أيضاً من حديث عبد الله بن مغفل رضى الله عنه مطولاً وفيه : « فبينا نحن كذلك ، إذ خرج علينا ثلاثون شاباً عليهم السلاح فثاروا فى وجوهنا ، فدعا عليهم رسول الله ﷺ ، فأخذ الله بأسماعهم فقمنا إليهم فأخذناهم . فقال رسول الله ﷺ : « هل جئتم فى عهد أحد » ؟ - أو قال : « هل جعل لكم أحد أمانة » ؟ - فقالوا : لا . فخلى سبيلهم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ .... ﴾ الآية .

● وأخرج الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « جاء الطفيل بن عمرو الدوسى رضى الله عنه إلى النبى ﷺ فقال : إنّ دوساً قد عصت وأبت ، فادع الله عليهم ، فاستقبل رسول الله ﷺ القِبْلة ورفع يديه ، فقال الناس : هلكوا .. فقال صلى الله عليه وسلم : « اللّهم اهد دوساً وائت بهم ، اللّهم اهد دوساً وائت بهم ، اللّهم اهد دوساً وائت بهم » - ثلاث مرات (٢) .

* * *

● من كظمه - صلى الله عليه وسلم - للغيظ :

يقول الله تعالى : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٣) .

---

(١) الفتح : ٢٤

(٢) انظر : حياة الصحابة للكاندهلوى : ٤٧٢/٢ وما بعدها - نشر دار التراث العربى سنة ١٩٨٢

(٣) آل عمران : ١٣٤

وقد كان رسول الله ﷺ - فى حياته كلها - كاظماً للغيظ ، عافياً عن الناس ، محسناً فى أموره كلها .

ولقد رأينا كيف كان حلمه صلى الله عليه وسلم وصفحه وكظمه للغيظ عندما طعن أحد المنافقين فى عدالته - صلى الله عليه وسلم - وهو يقسم الفئ يوم حنين ، فما زاد - عليه الصلاة والسلام - على أن قال : « رحم الله موسى ، قد أوذى بأكثر من هذا فصبر » .

ورأينا كيف كان صبره على اليهودى الذى سحر له ، فلما عافاه الله ونجاه من شره ، لم يذكر ذلك لليهودى ، ولم ير الصحابة أثراً للغيظ فى وجهه - صلى الله عليه وسلم - حتى لحق بالرفيق الأعلى .

كما رأينا كيف كان كظمه للغيظ من اليهودية التى وضعت له السم فى الشاة ، وكيف عفا عنها ، ثم لم يُقِم عليها الحد إلا قِصاصاً لموت بشر بن البراء رضى الله عنه بعد أن مات .

وكيف كان كظمه للغيظ من الثمانين رجلاً من أهل مكة الذى خرجوا عليه يوم الحديبية يريدون غرته ، فعفا عنهم وخلى سبيلهم .

وكيف كان كظمه - صلى الله عليه وسلم - للغيظ عندما جاءه الطفيل بن عمر يشكو دوساً التى عصت وأبت ، ويستعديه عليهم ، فدعا - عليه الصلاة والسلام - لهم بدلاً من الدعاء عليهم ، فهداهم الله تعالى ببركة دعائه .

وعن علىّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه قال : بعثنى رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد - رضى الله عنهم - فقال : « انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ [1] فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها » . فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة ، فإذا نحن بالظعينة فقلنا : أخرجى الكتاب ، فقالت : ما معى ، فقلنا : لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب ؟ قال : فأخرجته من عقاصها [2] ، فأتينا به

---

(١) موضع بين مكة والمدينة .

(٢) جمع عقيصة ، وهى الضفيرة .

رسول الله ﷺ فإذا فيه : من حاطب بن أبى بلتعة إلى ناس بمكة من المشركين يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ . فقال : « يا حاطب ، ما هذا » ؟ فقال : يا رسول الله ، لا تعجل علىّ ، إنى كنت امرءاً ملصقاً فى قريش - يقول : كنت حليفاً ولم أكن من أنفسها - وكان معك من المهاجرين مَن لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم ، فأحببت إذا فاتنى ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً يحمون قرابتى ، ولم أفعله ارتداداً عن دينى ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : « أما إنه قد صدقكم » . فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : يا رسول الله ، دعنى أضرب عنق هذا المنافق ؛ فقال : « إنه قد شهد بدراً ، وما يدريك لعل الله قد اطلع على مَن شهد بدراً فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم » ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِى سَبِيلِى وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِى ، تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ ، وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ (١) .

وعن جابر رضى الله عنه أن حاطباً قال : « أما إنى لم أفعله غشاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولا نفاقاً ، قد علمتُ أن الله مظهر رسوله ومتم له أمره ، غير أنى كنت غريباً بين ظهرانيهم وكانت والدتى معهم ، فأردت أن أتخذ يداً عندهم . فقال له عمر رضى الله عنه : « ألا أضرب رأس هذا » ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « أتقتل رجلاً من أهل بدر ؟ وما يدريك لعل الله قد اطلع إلى أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم » (٢) .

أرأيتم مبلغ حلم رسول الله ﷺ وكظمه للغيظ ؟

---

(١) رواه البخارى - والآية من سورة الممتحنة : ١

(٢) رواه أحمد فى المسند .

المسلمون يعدون العدة لفتح مكة ، ومن أول واجبات الحرب كتمان أمر المهاجمين ومباغتة العدو ، ولكن رجلاً من بين صفوف المسلمين يرسل إلى أهل مكة منذراً إياهم حتى يستعدوا لملاقاة الرسول ﷺ ، وفى ظنه أنه يتخذ بذلك يداً عندهم حتى يحموا قرابته ، ولكنه لم يكن يضمر خيانة للرسول الله ﷺ أو للمسلمين .

وفى قوانين الحرب يُعَد مثل هذا العمل خيانة عظمى تستوجب القتل ، الأمر الذى دعا عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى استئذان الرسول الله ﷺ فى ضرب عنق حاطب ، ولكنه صلى الله عليه وسلم بعد أن يستمع إلى دفاع الرجل ويعلم صدقه ، لم يزد على أن قال : « أما إنه قد صدقكم » .

● فى أعقاب هزيمة المشركين ببدر ، وبعد أن أصيب منهم مَن أصيب من كفار قريش أصحاب القليب ، عادت فلولهم إلى مكة ، ورجع أبو سفيان بن حرب بعيره ، مشى عبد الله بن أبى ربيعة ، وعِكرمة بن أبى جهل ، وصفوان بن أمية فى رجال من قريش ممن أصيب آباؤهم وإخوانهم يوم بدر ، فكلموا أبا سفيان بن حرب ، ومَن كانت له فى تلك العير من قريش تجارة ، فقالوا : يا معشر قريش، إنَّ محمداً قد وتركم ، وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حربه ، فلعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا ، ففعلوا .

واجتمعت قريش لحرب رسول الله ﷺ ، وخرجت بحدها وجدها وأحابيشها ، ومَن تابعها من بنى كنانة وأهل تهامة ، وخرجوا معهم بالنساء فى الهوادج التماساً للحفيظة ، وألا يقروا .

وخرج على رأس المشركين أبو سفيان بن حرب بزوجته هند بنت عتبة ، كما خرج كل من عِكرمة بن أبى جهل ، والحارث بن هشام بن المغيرة ، وصفوان بن أمية ، وعمرو بن العاص ، وطلحة بن أبى طلحة وغيرهم بنسائهم .

وكان وحشى بن حرب غلاماً لجبير بن مطعم - وكان عمه طعيمة بن عدى قد قُتِل يوم بدر - فلما سارت قريش إلى « أُحُد » قال له جبير : إن قتلتَ حمزة عم محمد بعمى فأنت عتيق .. فخرج مع الناس حين خرجوا إلى « أُحُد » .

وكانت هند بنت عتبة كلما مرت بوحشى أو مرّ بها ، قالت : ويهاً [1] أبا دَسمة ، اشف واستشف .

يقول وحشى : « فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأستبصره ، حتى رأيته مثل الجمل الأورق [2] فى عرض الناس يهذ الناس بسيفه هذاً ، ما يقوم له شئ ، فواللّه إنى لأريده ، واستترتُ منه بشجرة - أو بحجر - ليدنو منى ، وتقدمنى إليه سباع بن عبد العزى ، فلما رآه حمزة قال : إلىّ يابن مقطعة البظور - وكانت أمه ختّانة بمكة - فواللّه لكأن ما أخطأ رأسه ، فهززت حربتى ، حتى إذا رضيتُ منها دفعتها عليه ، فوقعت بين ثنته [3] حتى خرجت من بين رجليه ، وخليت بينه وبينها حتى مات ، ثم أتيته فأخذت حربتى ، ثم رجعتُ إلى العسكر ، ولم يكن لى بغيره حاجة ، فلما قدمت مكة عُتِقت » .

ويقول ابن إسحاق : « كان حمزة رضى اللّه عنه يقاتل يومئذ بسيفين ، فقال قائل : أى أسد هو حمزة ! فبينما هو كذلك إذ عثر عثرة وقع منها على ظهره ، فانكشف الدرع عن بطنه ، فزرقه [4] وحشى الحبشى - مولى جبير بن مطعم - بحربة فقتله » .

ومَثُل المشركون بحمزة رضى اللّه عنه وبجميع قتلى المسلمين ، إلا حنظلة بن أبى عامر الراهب ، فإن أباه كان مع المشركين فتركوه لأجله .

وجعل نساء المشركين - هند وصواحباتها - يجدعن أنوف المسلمين وآذانهم ويبقرون بطونهم ، وبقرت هند بطن حمزة رضى اللّه عنه فأخرجت كبده ، فجعلت تلوكها فلم تسغها فلفظتها .

---

(١) ويهاً : كلمة معناه : الإغراء والتحريض ، وكان وحشى يكنى بأبى دسمة .

(٢) الأورق : الذى لونه بين الغبرة والسواد ، وصفه كذلك لما كان عليه من الغبار .

(٣) الثُنة - بضم الثاء : العانة .

(٤) أى رماه .

فلما شهده النبى ﷺ اشتد وجده عليه . يقول ابن عباس رضى الله عنهما : لما انصرف المشركون عن قتلى « أُحُد » ، انصرف رسول الله ﷺ فرأى منظراً ساءه ، رأى حمزة قد شُقَّ بطنه ، واصطلم أنفه ، وجدعت أذناه ، فقال : لولا أن يحزن النساء ، أو تكون سُنَّة من بعدى لتركته حتى يبعثه الله من بطون السباع والطير ، لأمثّلن مكانه بسبعين رجلاً » .

ثم دعا ببردة وغطى بها وجهه ، فخرجت رجلاه ، فغطى رسول الله ﷺ وجهه وجعل على رجليه من الإذخر ، ثم قدّمه فكبّر عليه عشراً ، ثم جعل يجاء بالرجل فيوضع وحمزة مكانه ، حتى صلى عليه سبعين صلاة ، فلما دفنوا وفُرِغ منهم نزلت هذه الآيات : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ * وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ، وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ * وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ، وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ [1] ، فصبر رسول الله ﷺ ولم يُمثّل بأحد [2] .

يقول أبو هريرة رضى الله عنه : وقف رسول الله ﷺ على حمزة وقد مُثّل به ، فلم ير منظراً كان أوجع لقلبه منه فقال : « رحمك الله ، أى عم ، فلقد كنت وصولاً للرحم ، فعولاً للخيرات » .

وعن جابر بن عبد الله قال : لما رأى رسول الله ﷺ حمزة قتيلاً بكى ، فلما رأى ما مُثّل به شهق ، وقال : « لولا أن تجد [3] صفية ، لتركته حتى يُحشر فى بطون السباع » .

ولما عاد صلى الله عليه وسلم إلى المدينة سمع النوح على قتلى الأنصار ، فقال : « لكن حمزة لا بواكى له » ، فسمع الأنصار فأمروا نساءهم أن يندبن

---

(١) النحل : ١٢٥ - ١٢٧ (٢) رواه الدارقطنى .

(٣) أى تحزن ، وصفية هى أم الزبير وهى أخت حمزة رضى الله عنه .

حمزة قبل قتلاهم ، ففعلن ذلك . قال الواقدى : فلم يزلن يبدأن بالندب لحمزة حتى الآن ..

هكذا كان حال رسول الله ﷺ وهو يرى عمه حمزة رضى الله عنه ، قتيلاً ممثّلاً به ، مشقوقاً بطنه ، مصطلماً أنفه ، مجدوعة أذناه .

أى حزن كان عليه رسول الله ﷺ ، وأى غيظ وأى ألم تملكه .. حتى لقد عزم على التمثيل بسبعين رجلاً من المشركين مكان عمه .. ولكنه صلى الله عليه وسلم عندما يُنزل الله عليه : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ، وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾ يمتثل لأمر ربه فيصبر ويحتسب ، ويكظم الغيظ ويكتم الحزن والأسى .

ومثل هذه الفاجعة لا تبرح أبداً مخيلة الإنسان أو عقله ، مهما صبر واحتسب ، ومهما كظم الغيظ أو كبت الحزن وكتم الأسى .. خاصة حين يرى واتره الذي تسبب فى حزنه وغيظه بين يديه وقد مَلّكه الله أمره ، عندئذ لا تلبث الذكريات أن تتداعى ، ولا تلبث الأحزان أن تتوالى ، فتُنكأ الجراح من جديد ، وتتجدد الأحزان ، وتنهض الرغبات المكبوتة فى الثأر والانتقام .

ولكنه رسول الله ، الذى أرسله ربه رحمة للعالمين ، فكيف كان حاله - صلى الله عليه وسلم - عندما أتته هند بنت عتبة ، أو عندما جاءه وحشى بن حرب راغبين فى الإسلام ؟

عندما فتح الله مكة لنبيه وحبيبه ومصطفاه ، أسلمت هند بنت عتبة بعد زوجها أبى سفيان بليلة واحدة ، ويروى لنا هشام بن عروة عن أبيه قال : قالت هند لأبى سفيان : إنى أريد أن أبايع محمداً ، قال : قد رأيتك تكذّبين هذا الحديث أمس . قالت : والله ما رأيت الله عُبد حق عبادته فى هذا المسجد قبل الليلة ، والله إن باتوا إلا مصلين . قال : فإنك قد فعلت ما فعلت ، فاذهبى برجل من قومك معك .. فذهبت إلى عثمان بن عفان - وقيل : إلى أخيها أبى حذيفة بن عتبة - فذهب معها فاستأذن لها فدخلت وهى منتقبة .

ويروى ابن جرير من طريق العوفى عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن رسول الله ﷺ أمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : « قل لهن : إنّ رسول الله ﷺ يبايعكن على أن لا تشركن بالله شيئاً - وكانت هند بنت عتبة بن ربيعة التى شقت بطن حمزة متنكرة فى النساء - فقالت : إن أتكلم يعرفنى ، وإن عرفنى قتلنى .

وإنما تنكرت فَرَقاً من رسول الله ﷺ ، فسكت النسوة اللاتى مع هند ، وأبين أن يتكلمن ، فقالت هند وهى متنكرة : كيف تقبل من النساء شيئاً لم تقبله من الرجال ؟ ، ففطن إليها رسول الله ﷺ وقال لعمر : « قل لهن : ولا تسرقن » - قالت هند : والله إنى لأصيب من أبى سفيان الهنات ، ما أدرى أيحلهن لى أم لا ؟ قال أبو سفيان : ما أصبت من شئ مضى أو قد بقى ، فهو لكِ حلال .. فضحك رسول الله ﷺ وعرفها فدعاها ، فأخذت بيده فعاذت به ، فقال : « أنت هند » ؟ قالت : عفا الله عما سلف . فصرف عنها رسول الله ﷺ فقال : « ولا تزنين » ، فقالت : يا رسول الله ، وهل تزنى الحرة ؟ قال : « لا ، والله ما تزنى الحرة » ، فقال : « ولا يقتلن أولادهن » ، قالت هند : أنت قتلتهم يوم بدر فأنت وهم أبصر . قال : « ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن »، قال : « ولا يعصينك فى معروف » . قال : منعهن أن ينحن ، وكان أهل الجاهلية يمزقن الثياب ، ويخدشن الوجوه ، ويقطعن الشعور ، ويدعون بالثبور [1] .

وروى ابن أبى حاتم الحديث وزاد : « فلما قال : « ولا تقتلن أولادكن » قالت هند : ربيناهم صغاراً وقتلتموهم كباراً ، فضحك عمر بن الخطاب رضى الله عنه حتى استلقى » .

وعن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت : « جاءت هند بنت عتبة إلى رسول الله ﷺ لتبايعه ، فنظر إلى يدها فقال : « اذهبى فغيِّرى يدك » ، فذهبت فغيَّرتها بحناء ثم جاءت فقال : « أبايعك على أن لا تشركى بالله شيئاً » ،

---

(١) تفسير الطبرى : ٨/٥١٢

فبايعها وفى يدها سواران من ذهب ، فقالت : ما تقول فى هذين السوارين ؟ فقال : « جمرتان من جمر جهنم » [1] .

هذا ما كان من رسول الله ﷺ مع هند بنت عتبة ، أما ما كان من أمره مع وحشى بن حرب ، فيقص علينا وحشى خبره فيقول : « أقمتُ بمكة حتى افتتحها رسول الله ﷺ ، فهربتُ إلى الطائف ، فكنتُ بها ، فلما خرج وفد أهل الطائف إلى رسول الله ﷺ ليسلموا ، ضاقت علىَّ الأرض وقلت : ألحق بالشام أو باليمن أو ببعض البلاد ، فإنى لفى ذلك إذ قال لى رجل : ويحك ، إنه والله ما يقتل أحداً من الناس دخل فى دينه ، فلما قال لى ذلك خرجتُ حتى قدمتُ على رسول الله ﷺ المدينة ، فلم يرعه إلا وأنا قائم على رأسه ، أشهد شهادة الحق ، فلما رآنى قال : « وحشى » ؟ . قلت : نعم . قال : « اقعد فحدثنى كيف قتلتَ حمزة » ، فحدثته ، فلما فرغتُ من حديثى قال : « ويحك ! غَيِّب وجهك عنى ، فلا أراك » .. فكنت أتنكب [2] رسول الله ﷺ حيث كان ، فلم يرنى حتى قبضه الله تعالى » [3] .

فلله درك يا سيدى يا رسول الله .. ما أكرمك ، وما أحلمك ، وما أعظمك .. وصدق فيك قول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [4] .

* * *

● من حياء النبى ﷺ :

كان رسول الله ﷺ إلى جانب حلمه وشفقته ورحمته ، شديد الحياء حتى ليصفه أحد صحابته بأنه كان أشد حياءً من العذراء فى خدرها .

---

(١) تفسير ابن كثير : ٨/١٢٥ (٢) أى أعدل عن طريقه .

(٣) انظر : البداية والنهاية لابن كثير ، والسيرة النبوية لابن هشام ، وأسد الغابة لابن الأثير ، وتفسير القرطبى ، وتفسير ابن كثير (بتصرف كبير) . (٤) التوبة : ١٢٨

فعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : « كان النبى ﷺ أشد حياءً من العذراء فى خدرها » - وزاد فى رواية : « وإذا كره شيئاً عُرِف ذلك فى وجهه » [1] .

وكان صلى الله عليه وسلم يقول - فيما رواه أنس رضى الله عنه : « الحياء خير كله » [2] .

وعن أنس رضى الله عنه : « أن النبى ﷺ رأى على رجل صفرة فكرهها ، قال : فلما قام قال : « لو أمرتم هذا أن يغسل عنه هذه الصفرة » قال : وكان لا يكاد يواجه أحداً بشئ يكرهه » [3] .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : « كان النبى ﷺ إذا بلغه عن رجل شئ لم يقل : ما بال فلان يقول ؟ ، ولكن يقول : ما بال أقوام يقولون كذا وكذا » [4] .

● ولهذا كان صلى الله عليه وسلم يحب الحياء فى الرجال ، ويحب منهم الرجل الحيى .

عن سعيد بن العاص رضى الله عنه : « أنَّ عائشة - زوج النبى ﷺ - وعثمان بن عفان رضى الله عنهما حدثاه : أنّ أبا بكر رضى الله عنه استأذن على النبى ﷺ وهو مضطجع على فراشه لابس مرط عائشة فأذن لأبى بكر وهو كذلك ، فقضى حاجته ثم انصرف .

فاستأذن عمر رضى الله عنه ، فأذن له وهو على تلك الحالة ، فقضى إليه حاجته ثم انصرف .

قال عثمان : ثم استأذنتُ عليه فجلس وقال لعائشة : « اجمعى عليك ثيابك » ، فقضيت إليه حاجتى ثم انصرفت .

---

(١) رواه الشيخان .
(٢) أخرجه البزار .
(٣) رواه أحمد .
(٤) رواه أبو داود .

فقالت عائشة : يا رسول الله ، ما لى لا أراك فزعت لأبى بكر وعمر كما فزعت لعثمان ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إن عثمان رجل حيى ، وإنى خشيتُ إن أذنت له على تلك الحالة لا يبلِّغ إلىَّ حاجته » . قال الليث : وقال جماعة من الناس : إن رسول الله ﷺ قال لعائشة رضى الله عنها : « ألا أستحى ممن تستحى منه الملائكة » ؟ (١) .

وعند الطبرانى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : « بينما رسول الله ﷺ جالس وعائشة رضى الله عنها وراءه ، إذ استأذن أبو بكر رضى الله عنه فدخل ، ثم استأذن عمر رضى الله عنه فدخل ، ثم استأذن سعد بن مالك رضى الله عنه فدخل ، ثم استأذن عثمان بن عفان رضى الله عنه فدخل - ورسول الله ﷺ يتحدث كاشفاً عن ركبته ، فرد ثوبه على ركبته حين استأذن عثمان وقال لامرأته : « استأخرى » ، فتحدثوا ساعة ثم خرجوا ، فقالت عائشة : يا نبى الله ، دخل أبى وأصحابه فلم تصلح ثوبك على ركبتك ولم تؤخرنى عنك ؟ فقال النبى ﷺ : « ألا أستحى من رجل تستحى منه الملائكة ؟ والذى نفسى بيده ، إن الملائكة لتستحى من عثمان كما تستحى من الله ورسوله ، ولو دخل وأنتِ قريب منى لم يتحدث ولم يرفع رأسه حتى يخرج » .

وعن أشج عبد القيس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنّ فيك لخلقين يحبهما الله » ، قلت : ما هما يا رسول الله ؟ قال : « الحلم ، والحياء » قلت : قديماً كانا فىّ أو حديثاً ؟ قال : « لا ، بل قديماً » ، قلت : الحمد لله الذى جبلنى على خُلُقين يحبهما الله (٢) .

● ولقد كان صلى الله عليه وسلم مثلاً أعلى للإنسانية فى أموره كلها ، سأل رجل عائشة رضى الله عنها : هل كان رسول الله ﷺ يعمل فى بيته ؟ قالت : « نعم ، كان يخصف (٣) نعله ، ويخيط ثوبه كما يعمل أحدكم فى بيته » (٤) .

---

(١) رواه أحمد .

(٢) أخرجه ابن أبى شيبة .

(٣) أى يخرزها .

(٤) رواه البيهقى عن عروة .

وعن عمرة قالت : قلت لعائشة رضى الله عنها : ما كان يعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيته ؟ قالت : « كان رسول الله ﷺ بَشراً من البَشر : يفلى ثوبه ، ويحلب شاته ، ويخدم نفسه » [١] .

وعن الأسود رضى الله عنه قال : « قلت لعائشة رضى الله عنها : ما كان النبى ﷺ يصنع إذا دخل بيته ؟ قالت : كان يكون فى مهنة [٢] أهله ، فإذا حضرت الصلاة خرج فصلى » [٣] .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « كان رسول الله ﷺ لا يكل طهوره إلى أحد ، ولا صدقته التى يتصدق بها ، يكون هو الذى يتولاها بنفسه » [٤] .

* * *

● من صبره .. صلى الله عليه وسلم :

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه دخل على رسول الله ﷺ وهو موعوك [٥] عليه قطيفة ، فوضع يده فوق القطيفة فقال : ما أشد حُمَّاك يا رسول الله ! ، قال : « إنَّا كذلك يُشدَّد علينا البلاء ويُضاعَف لنا الأجر » ، ثم قال : يا رسول الله ، مَن أشد الناس بلاء ؟ قال : « الأنبياء » . قال : ثم مَن ؟ قال : « العلماء » . قال : ثم مَن ؟ قال : « الصالحون ، كان أحدهم يُبتَلى بالقمل حتى يقتله ، ويُبتَلى أحدهم بالفقر حتى ما يجد إلا العباءة يلبسها ، ولأحدهم كان أشد فرحاً بالبلاء من أحدكم بالعطاء » [٦] .

● وعن أبى عبيدة بن حذيفة رضى الله عنه عن عمته فاطمة رضى الله عنها قالت : « أتينا رسول الله ﷺ فى نساء نعوده وقد حُمَّ ، فأمر بسقاء فعلق على شجرة ثم اضطجع تحته فجعل يقطر على فواقه من شدة ما يجد من الحُمَّى ،

---

(١) رواه البيهقى .
(٢) أى خدمتهم .
(٣) رواه أحمد .
(٤) رواه القزوينى .
(٥) أى محموم .
(٦) أخرجه ابن ماجه .

فقلت : يا رسول الله ، لو دعوتَ الله أن يكشف عنك ؟ فقال : « إنَّ أشد الناس بلاءً الأنبياء ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » (١) .

● وعن عائشة رضى الله عنها : « أن رسول الله ﷺ طرقه وجع ، فجعل يشتكى ويتقلب على فراشه فقالت له عائشة : لو فعل هذا بعضنا لوجدتَ عليه. فقال : « إنَّ المؤمنين ليُشدَّد عليهم ، وإنه ليس من مؤمن تصيبه نكبة ، شوكة ولا وجع ، إلا كفَّر الله عنه بها خطيئة ورفع له بها درجة » (٢) .

● وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : « رأيت إبراهيم - ابن رسول الله - وهو يكيد بنفسه بين يدى رسول الله ﷺ فدمعت عينا رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « تدمع العين ، ويحزن القلب ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ، والله يا إبراهيم إنَّا بك لمحزونون » (٣) .

● وعن مكحول رضى الله عنه قال : « دخل رسول الله ﷺ وهو معتمد على عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه وإبراهيم يجود بنفسه ، فلما مات دمعت عينا رسول الله ﷺ ، فقال له عبد الرحمن : أى رسول الله ، هذا الذى تنهى الناس عنه ، متى يرك المسلمون تبكى يبكوا . قال : فلما سريت (٤) عنه عبرته قال : « إنما هذه رحمة ، وإنَّ مَن لا يَرحم لا يُرحم ، إنما ننهى الناس عن النياحة وأن يُندب الرجل بما ليس فيه » .. ثم قال : « لولا أنه وعد جامع وسبيل منتاء (٥) ، وأن آخرنا لاحق بأولنا لوجدنا عليه وجداً غير هذا ، وإنَّا عليه لمحزونون .. تدمع العين ، ويحزن القلب ، ولا نقول ما يسخط الرب ، وفضل رضاعه فى الجنة » (٦) .

● وعن أسامة بن زيد رضى الله عنه قال : « كنا عند النبى ﷺ ، فأرسلت إليه إحدى بناته تدعوه وتخبره أن صبياً لها فى الموت ، فقال للرسول : « ارجع

---

(١) أخرجه البيهقى .
(٢) أخرجه ابن سعد فى الطبقات ، والحاكم والبيهقى .
(٣) أخرجه ابن سعد فى الطبقات .
(٤) أى كشفت .
(٥) أى مسلوك .
(٦) أخرجه ابن سعد فى الطبقات .

إليها فأخبرها أن لله ما أخذ وله ما أعطي ، وكل شئ عنده بأجل مسمى ، فمرها فلتصبر ولتحتسب » ..

فعاد الرسول وقال : إنها قد أقسمت لتأتينها . فقام صلى الله عليه وسلم وقام معه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل وأبيّ بن كعب وزيد بن ثابت رضى الله عنهم ورجال ، وانطلقت معهم فرُفِع إلى رسول الله ﷺ الصبى ونفسه تقعقع [1] كأنها فى شن [2] ، ففاضت عيناه فقال له سعد : ما هذا يا رسول الله ؟ قال : « هذه رحمة جعلها الله فى قلوب عباده ، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء » [3] .

● وقد مرّ بنا كيف كان صبره وتجمله - صلى الله عليه وسلم - لما أصاب عمه حمزة رضى الله عنه يوم « أُحُد » ، وكيف ترك المُثْلة وعفى عن هند بنت عتبة - التي لاكت كبده رضى الله عنه - وعن وحشى الذى قتله ، وقَبِل إسلامهما .

● وعن أسامة بن زيد رضى الله عنه قال : لما قتل أبى ، أتيتُ النبى ﷺ ، فلما رآنى دمعت عيناه ، فلما كان من الغد أتيته فقال : « لاقى منك اليوم ما لاقيتُ منك أمس » [4] .

● وعن خالد بن شمير رضى الله عنه قال : « لما أصيب زيد بن حارثة رضى الله عنه ، أتاهم النبى ﷺ قال : فجهشت [5] بنت زيد فى وجه رسول الله ﷺ ، فبكى صلى الله عليه وسلم حتى انتحب ، فقال له سعد بن عبادة رضى الله عنه : يا رسول الله ، ما هذا ؟ قال : « هذا شوق الحبيب إلى حبيبه » [6] .

● وعن عائشة رضى الله عنها قالت : « قبّل النبى ﷺ عثمان بن مظعون رضى الله عنه وهو ميت وهو يبكى وعيناه تذرفان » [7] .

---

(١) أى تضطرب وتتحرك .
(٢) الشنة : هى القربة الخلقة .
(٣) أخرجه الطيالسى وأحمد وأبو داود والترمذى وغيرهم .
(٤) أخرجه ابن أبى شيبة .
(٥) الجهش : هو أن تفزع إلى أحد وتلجأ إليه مع إرادة بكاء ، كما يفزع الصبى إلى أمه .
(٦) رواه ابن سعد فى الطبقات .
(٧) أخرجه الترمذى .

● وأخرج ابن سعد عن عائشة رضى الله عنها نحوه ، وفى روايته : « قالت : فرأيتُ دموع النبى ﷺ تسيل على خد عثمان بن مظعون » .

صلوات الله وسلامه عليك يا سيدى يا رسول الله ، يا مَن بعثك الله رحمة للعالمين ، وقلت وقولك الحق : « إنما أنا رحمة مهداة » .

* * *

● من أوصافه الشريفة .. صلى الله عليه وسلم :

عن الحسن بن علىّ رضى الله عنهما قال : سألت خالى هند بن أبى هالة عن حلية رسول الله ﷺ ، وكان وصّافاً ، وأنا أرجو أن يصف لى منها شيئاً أتعلق به ، فقال :

« كان رسول الله ﷺ فخماً مفخماً ، يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر ، أطول من المربوع [١] ، وأقصر من المشذب [٢] ، عظيم الهامة [٣] ، رجل الشعر ، إن انفرقت عقيقته [٤] فرق ، وإلا فلا يجاوز شعره شحمة أذنيه ، إذا هو وفره ، أزهر [٥] اللون ، واسع الجبين ، أزج [٦] الحواجب ، سوابغ من غير قرن [٧] ، بينهما عِرْق يدره الغضب ، أقنى العرنين [٨] ، له نور يعلوه ، يحسبه مَن لم يتأمله أشم [٩] ، كث اللحية ، أدعج [١٠] ، سهل الخدين ، ضليع الفم [١١] ،

---

(١) المربوع : الوسيط القامة .
(٢) المشذب : الطويل القامة .
(٣) الهامة : الرأس ، وأعلاه وأوسطه ، يقال : هو هامة قومه ، أى سيدهم ورئيسهم .
(٤) العقيقة هى الشَعر .
(٥) الأزهر : كل لون أبيض صاف مشرق مضئ .
(٦) الزجج فى الحواجب : دقة فى طول وتقوس .
(٧) أى تامة طويلة متسعة ، دون أن يلتقى طرفاها .
(٨) العرنين : ما صلب من عظم الأنف حيث يكون الشحم .
(٩) الشمم : ارتفاع قصبة الأنف فى استواء .
(١٠) الدعج : شدة السواد .
(١١) الضلع فى الفم : اتساعه وعظم أسنانه ، والعرب تحمد ذلك .

أشنب [١] ، مفلج الأسنان [٢] ، دقيق المسربة [٣] ، كأن عنقه جيد دمية فى صفاء الفضة ، معتدل الخلق ، بادناً متماسكاً ، سواء البطن والصدر ، عريض الصدر ، بعيد ما بين المنكبين [٤] ، ضخم الكراديس [٥] ، أنور المتجرد [٦] ، موصول ما بين اللبة [٧] والسرة بشعر يجرى كالخط ، عارى الثديين والبطن مما سوى ذلك ، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالى الصدر ، طويل الزندين [٨] رحب الراحة ، شثن [٩] الكفين والقدمين ، سايل - أو سائل - الأطراف ، خمصان الأخمصين [١٠] ، مسيح القدمين ، ينبو عنهما الماء ، إذا زال زال قلعاً [١١] ، ويخطو تكفؤاً [١٢] ، ويمشى هوناً ، ذريع المشية ، إذا مشى كأنما ينحط من صبب [١٣] ، وإذا التفت التفت جميعاً ، خافض الطرف ، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء ، جُلّ نظره الملاحظة ، يسوق أصحابه ، ويبدأ مَن لقيه السلام » .

قلت : فصف لى منطقه .

قال : « كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ، ليس له راحة ، طويل السكتة ، لا يتكلم فى غير حاجة ، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه ،

---

(١) الأشنب : هو من رقت أسنانه وابيضت .

(٢) الفلج فى الأسنان : التباعد والاستواء .

(٣) المسربة : الشعر المستدق الذى يأخذ من الصدر إلى السرة .

(٤) المنكبان : مجتمع رأس العضد والكتف .

(٥) الكراديس : كل عظمين التقيا ، نحو المنكبين والركبتين والوركين .

(٦) أى خلا جسمه من الشعر الزائد ، فهو أجرد مما يشين .

(٧) اللبة : موضع القلادة من العنق .

(٨) الزندان : الساعد والذراع .

(٩) الشثن : الغلظ والخشونة .

(١٠) أى ارتفع باطنهما من الأرض فلا يمسها ، والأخمصان : باطن القدمين الذى يتجافى عن الأرض .

(١١) القلع : القوة فى المشى .

(١٢) التكفؤ : التبختر فى غير اختيال .

(١٣) الصبب : ما انحدر من الأرض .

ويتكلم بجوامع الكلم ، فصلاً لا فضول فيه ولا تقصير ، دمثاً ، ليس بالجافى ولا المهين ، يعظّم النعمة وإن دقت ، لا يذم شيئاً ، لم يكن يذم ذواقاً ولا يمدحه ، ولا يقام لغضبه إذا تعرض للحق بشئ حتى ينتصر له ، ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها ، إذا أشار أشار بكفه كلها ، وإذا تعجب قلبها ، وإذا تحدث اتصل بها ، فضرب بإبهامه اليمنى راحته اليسرى ، فإذا غضب أعرض وأشاح ، وإذا فرح غض طرفه ، جُلّ ضحكه التبسم ، يفتر عن مثل حب الغمام » .

قال الحسن رضى الله عنه : فكتمتها الحسين بن علىّ رضى الله عنهما زماناً ، ثم حدثته فوجدته قد سبقنى إليه ، فسأله عما سألته عنه ، ووجدته قد سأل أباه عن مدخله ومخرجه وشكله ، فلم يدع منه شيئاً ..

قال الحسين رضى الله عنه : سألت أبى رضى الله عنه عن دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال :

« كان دخوله لنفسه مأذوناً له فى ذلك ، فكان إذا أوى إلى منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء : جزءاً لله ، وجزءاً لأهله ، وجزءاً لنفسه . ثم جزأ جزءه بينه وبين الناس ، فيرد ذلك على العامة والخاصة ، ولا يدخر عنهم شيئاً .

وكان من سيرته فى جزء الأمة إيثار أهل الفضل بإذنه ، وقسمته على قدر فضلهم فى الدين ، فمنهم ذو الحاجة ، ومنهم ذو الحاجتين ، ومنهم ذو الحوائج ، فيتشاغل بهم ، ويشغلهم فيما أصلحهم ، والأمة فى مسألته عنهم وإخبارهم بالذى ينبغى لهم ، ويقول : « ليبلغ الشاهد منكم الغائب ، وبلغونى حاجة مَن لا يستطيع إبلاغى حاجته ، فإنه مَن أبلغ سلطاناً حاجة مَن لا يستطيع إبلاغها ثبّت الله قدميه يوم القيامة » . لا يُذكر عنده إلا ذلك ، ولا يقبل من أحد غيره » .

قال فى رواية سفيان عن وكيع : « يدخلون رواداً ولا يتفرقون إلا عن ذواق ، ويخرجون أدلة على الخير » .

قلت : فأخبرنى عن مخرجه كيف كان يصنع فيه ؟

قال : « كان رسول الله ﷺ يخزن لسانه إلا فيما يعنيه ، ويؤلفهم ولا يفرقهم ، يكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم ، ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوى عن أحد منهم بشره وخُلقه ، ويتفقد أصحابه ، ويسأل الناس عما فى الناس ، ويُحسِّن الحسن ويُصوِّبه ، ويُقبِّح القبيح ويوهيه ، معتدل الأمر غير مختلف ، لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يملوا ، لكل حال عنده عتاد ، لا يقصر عن الحق ولا يجاوزه إلى غيره ، الذين يلونه من الناس خيارهم ، وأفضلهم عنده أعمهم نصيحة ، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة » .

فسألته عن مجلسه ، فقال :

« كان رسول الله ﷺ لا يجلس ولا يقوم إلا على ذِكْر ، ولا يوطن الأماكن ، وينهى عن إيطانها ، وإذا انتهى إلى القوم جلس حيث ينتهى به المجلس ، ويأمر بذلك ، ويعطى كل جلسائه نصيبه حتى لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه ، مَن جالسه أو قاومه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه ، ومَن سأله حاجة لم يرده إلا بها ، أو بميسور من القول ، قد وسع الناس بسطه وخُلقه ، فصار لهم أباً ، وصاروا عنده فى الحق متقاربين متفاضلين فيه بالتقوى » .

وفى رواية : « وصاروا عنده فى الحق سواء ، مجلسه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة ، لا تُرفع فيه الأصوات ، ولا تؤبن فيه الحرم ، ولا تثنّى فلتاته ، يتفاضلون فيه بالتقوى ، متواضعين ، يوقرون فيه الكبير ، ويرحمون الصغير ، ويرفدون ذا الحاجة ، ويرحمون الغريب » .

قال : فسألته عن سيرته فى جلسائه ، فقال :

« كان رسول الله ﷺ دائم البِشْر ، سهل الخُلُق ، لين الجانب ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا سخَّاب ، ولا فحَّاش ، ولا عيَّاب ، ولا مزَّاح ، يتغافل عما لا يشتهى ، ولا يؤيس منه ، قد ترك نفسه من ثلاث : الرياء ، والإكثار ، وما لا يعنيه .

وترك الناس من ثلاث : كان لا يذم أحداً ولا يعيِّره ، ولا يطلب عورته ، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه .

إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير ، وإذا سكت تكلموا ، لا يتنازعون عنده الحديث ، مَن تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ ، حديثهم عنده حديث أولهم ، يضحك مما يضحكون منه ، ويتعجب مما يتعجبون منه ، ويصبر للغريب على جفوته فى المنطق ، ويقول : « إذا رأيتم صاحب الحاجة يطلبها فأرفدوه » ، ولا يطلب الثناء إلا من مكافئ ، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجوز فيقطعه بانتهاء أو قيام » .

وفى رواية : « قلت : كيف كان سكوته ؟

قال : كان سكوته على أربعة : على العلم ، والحذر ، والتقدير ، والتفكر

فأما تقديره : ففى تسوية النظر والاستماع بين الناس .

وأما تفكره : ففيما يبقى ويفنى ، وجُمِع له الحلم فى الصبر ، فكان لا يغضبه شئ ولا يستفزه .

وجُمِع له فى الحذر أربع : أخذه بالحسن ليُقتَدى به ، وتركه القبيح ليُنتَهى عنه ، واجتهاد الرأى بما أصلح أُمته ، والقيام فيما جُمِع لهم أمر الدنيا والآخرة » [1] .

وعن علىّ كرّم الله وجهه قال : كان إذا وصف رسول الله ﷺ قال : « لم يكن بالطويل الممغط [2] ، ولا بالقصير المتردد [3] ، وكان ربعة [4] من القوم ، ولم يكن بالجعد القطط [5] ، ولا بالسبط [6] ، كان جعداً رجلاً ، لم يكن بالمطهم

---

(١) رواه الترمذى فى الشمائل ، والبيهقى فى دلائل النبوة ، والقاضى عياض فى الشفاء ، وانظر : الرصف لما روى عن النبى ﷺ من الفعل والوصف للعاقولى : ٦٢/١

(٢) الممغط : المفرط الطول .

(٣) المتردد : المجتمع الخلق القصير .

(٤) الربعة : الوسيط القامة .

(٥) الجعد فى الشعر : التجمع والتقبض والتلوى ، والقطط : القصر .

(٦) السبط من الشعر : المسترسل غير الجعد .

ولا بالمكلثم [١] ، وكان فى الوجه تدوير ، أبيض مشرب ، أدعج العينين [٢] ، أهدب الأشفار [٣] ، جليل المشاش والكتد [٤] ، أجرد ذو مسربة [٥] ، شثن [٦] الكفين والقدمين ، إذا مشى تقلع كأنما يمشى فى صبب ، وإذا التفت التفت معاً ، بين كتفيه خاتم النبوة ، وهو خاتم النبيين ، أجود الناس صدراً ، وأصدق الناس لهجة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عِشْرة ، مَن رآه بديهة هابه ، ومَن خالطه معرفة أحبه ، يقول ناعته : لم أر قبله ولا بعده مثله » [٧] .

هكذا كانت صفات رسول الله ﷺ ، وصدق فيه قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [٨] .

* * *

● من خصائصه .. صلى الله عليه وسلم :

ويحدثنا الإمام محمد بن عبد الوهاب عن بعض خصائص النبى ﷺ فيقول :

« كان رسول الله ﷺ يبايع أصحابه فى الحرب : على أن لا يفروا ، وربما بايعهم على الموت ، وربما بايعهم على الجهاد ، وربما بايعهم على الإسلام ، وبايعهم على الهجرة قبل الفتح ، وبايعهم على التوحيد والتزام طاعة الله ورسوله .

---

(١) المطهم : السمين الفاحش السمن ، أو المنتفخ الوجه ، والكلثوم : امتلاء لحم الخدين والوجه .

(٢) الدعج فى العينين : اشتداد سوادها وبياضها واتساعها .

(٣) شفر الجفن : حرفه الذى ينبت عليه الهدب .

(٤) المشاش : الأصل والنفس والطبيعة ، والكتد : مجتمع الكتفين والكاهل .

(٥) المسربة : الشعر المستدق الذى يأخذ من الصدر إلى السرة ، والجرد : خلو الجسم من الشعر الزائد .

(٦) الشثن : الغليظ الخشن ، علامة على الرجولة .

(٧) أخرجه الترمذى فى جامعه .

(٨) القلم : ٤

وبايع نفراً من أصحابه على أن لا يسألوا الناس شيئاً ، فكان السوط يسقط من أحدهم ، فينزل فيأخذه ، ولا يسأل أحداً أن يناوله إياه .

وكان يبعث البعوث يأتونه بخبر عدوه ، ويُطْلِع الطلائع ، ويبث الحرس والعيون ، حتى لا يخفى عليه من أمر عدوه شئ .

وكان إذا لقى عدوه دعا الله واستنصر به ، وأكثر هو وأصحابه من ذكر الله ، والتضرع له .

وكان كثير المشاورة لأصحابه فى الجهاد .

وكان يتخلف فى ساقتهم ، فيزجى الضعيف ، ويردف المنقطع .

وكان إذا أراد غزوة وَرَّى بغيرها .

وكان يرتب الجيش والمقاتلة ، ويجعل فى كل جَنْبة كفؤاً لها .

وكان يُبارَز بين يديه بأمره ، وكان يلبس للحرب عدته ، وربما ظاهر بين درعين كما فعل يوم « بدر » .

وكان له ألوية ، وكان إذا ظهر على قوم أقام بعرصتهم ثلاثاً ثم قفل .

وكان إذا أراد أن يُغير : ينتظر ، فإذا سمع مؤذناً لم يُغِرْ ، وإلا أغار .

وكان يحب الخروج يوم الخميس بُكرة .

وكان إذا اشتد البأس اتقوا به ، وكان أقربهم إلى العدو .

وكان يحب الخيلاء فى الحرب ، وينهى عن قتل النساء والولدان ، وينهى عن السفر بالقرآن إلى أرض العدو » [1] .

* * *

(١) مختصر سيرة الرسول للإمام محمد بن عبد الوهاب ص ١٠٦ ، ١٠٧ .